القيم الإسلامية

يطلب من خدمة الطالب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:102].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:70-71].

إن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار.

وقبل أن نلج في صلب مفردات مقرر القيم الإسلامية، أجد أن من الضرورة المنهجية ذكر بعض الإشارات المهمة التي لها علاقة بالقيم، وتفيد القارئ كثيراً في حسن تصور موضوعات القيم الإسلامية، وهي كما يلي :

١ - مكانة القيم في الحضارة الإنسانية

لا يخفى ما للقيم من أهمية في حياة الناس، في تصرفاتهم وعلاقاتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم، بل في تصوراتهم لهذه الحياة، وما يجب فعله، وما يجب عليهم أن يتجنبوه !

ويتجلى حضورها في جميع مجالات الحياة، الأسرية منها أو الروحية أو الاجتماعية أو الثقافية أو الاقتصادية أو السياسية، وأيضاً حضرت القيم في ميادين أخرى، كميادين العلم والفكر، بل الفطرية والشعورية.

إن القيم هي التي تُظهر الزعامات والبطولات في أمة من الأمم، أو حضارة من الحضارات .

والقيم أيضاً تنشر السلوكيات المتزنة المحمودة، كما تمكن المجتمعات البشرية من التقدم والازدهار باعتبار هذه القيم من مرتكزات الحضارة الإنسانية[١].

إن القيم تعتبر من أهم جوانب الحياة الإنسانية، ذلك أنها تمثل ركناً أساسياً في الحياة سواء كان ذلك على مستوى الفرد، أو المجتمع، ولهذا فإن هناك شبه اتفاق بين المفكرين والحكماء والعلماء على ضرورة الأخلاق ولزومها حياة الناس في كل مجتمع، وتتأكد حاجة الإنسان للأخلاق إذا أشرنا إلى أن النفس البشرية تنازعها غرائز متنوعة تصل إلى حد التخالف والتضارب، منها الفردي الذي يدفع إلى العزلة والأنانية، ومنها الاجتماعي الذي يدعو إلى حب الآخرين والتعاون و بذل المعروف .

ومنها ما ينزل به إلى درك المادة، ومنها ما يسمو به إلى آفاق روحية شاهقة ..و من أجل هذا فهو في حاجة إلى الأخلاق التي توائم بين غرائزه، وتهذب طبيعته، وتدله على السلوك الحسن اللائق به، كمخلوق مكرم،

---

(١) انظر : الأستاذ محمد الحسيني، مدونة القيم في القرآن والسنة ص(11).

شرفه الله تعالى بالخلافة في الأرض[1].

وقد ثبت هذا التكريم في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾[الإسراء:70] .

والفطرة البشرية فيها ميل نحو الخير ونزوع إلى الإحسان، ومن ثمّ فالفطرة فيها حب وتفضيل للخلق الطيب، ونفره وبغض للخلق القبيح، وهذا الميل الفطري للأخلاق الحسنة يجعل الأخلاق شكلاً من أشكال الوعي الإنساني؛ لأنها تغرس في النفس البشرية بذور الخير والإحسان، كما تضع أسساً إيجابية ترتقي بأساليب التعامل مع الآخرين من محيطها الضيق الأسري إلى المجتمعات والبيئة !ﷺ

كما أنها تضبط السلوك الإنساني فتحجزه عن أي شكل من أشكال التعدي أو إلحاق الضرر المعنوي والمادي بالإنسان والحيوان والبيئة..

فالأخلاق هي الوجود الثاني للإنسان مثل وجوده الحيواني البشري، كما يقول الفيلسوف الألماني " هيجل "[2]، حيث يستبدل التعريف الشائع للإنسان الذي يقول : " حيوان عاقل " إلى تعريف آخر يقول : " حيوان أخلاقي " !

وهذا يدل على أهمية الأخلاق إنسانياً، وأنها جزء من كينونة الإنسان وخصائصه المميزة له .

---

(١)نظر : عبدالمقصود خيشة ، النظرية الخلقية في الإسلام ص (32/31)

(٢)هيجل، جورج فريدريش (1770-1831م) فيلسوف ألماني ، عرف بمعلم الثقافة الفلسفية الألمانية ، من كتبه : موسوعة العلوم الفلسفية ، وعلم المنطق .
معجم الفلاسفة ص (721-725).

وهذا ما أكده أيضا الفيلسوف " هارتمان " [1] بقوله :

" إن الوجود البشري هو وحده الحامل للقيم الأخلاقية ، فهو الكائن الوحيد الذي لا يتحدد وجوده إلا من خلال علاقته بالقيم " .[2]

فالأخلاقية هي ألصق صفةً بالإنسان من العقلانية، وهذا ما يثيره كثيراً المفكر الإسلامي "طه عبد الرحم ن" في كتابه " سؤال الأخلاق " وفي سائر كتبه تقريباً!بل إن الأخلاق مرجعية ضابطه لحدود مشروعه الإبداعي والنقدي وتكاد تخترق مشروعه كله [3].

يبتدئ مثلاً كتابه " سؤال الأخلاق " بسؤال مثير : " أيهما أخص بالإنسان : العقلانية أو الأخلاق ؟ " ثم يخلص بعد بيان خطأ هذه الحداثة الغربية في تقديم العقل على الأخلاقية إلى قوله : " فإذا بطل أن تكون العقلانية هي الحد الفاصل بين الإنسانية والبهيمية؛ وجب أن يوجد هذا الحد الفاصل في شيء لا ينقلب بالضرر على الإنسان من حيث أراد الصلاح في الحال والفلاح في المآل، ولا يقع الشك في نفعه متى تقرر الأخذ به،ولا في حصول الضرر متى تقرر تركه، وليس هذا الشيء إلا مبدأ طلب الصلاح نفسه، وهو الذي نسميه الأخلاقية، فالأخلاقية هي وحدها التي جعل أفق الإنسان مستقلاً عن أفق البهيمة، فلا مراء في أنّ البهيمة لا تسعى إلى الصلاح في سلوكها كما تسعى إلى رزقها مستعملةً في ذلك عقلها، فالأخلاقية هي الأصل الذي تتفرع عليه كل صفات الإنسان من حيث هو كذلك، والعقلانية أن تنسب إليه ينبغي أن تكون تابعة لهذا الأصل الأخلاقي "[4].

---

(١)هارتمان ،نيقولاي(1882-1950م) فيلسوف ألماني ، اشتهر بتأثره بالكانطية ، وارتكزت أفكاره حول المعرفة والأخلاق ، من كتبه : ميتافيزيقا المعرفة ، الأخلاق .
معجم الفلاسفة ص (689-690).

(٢)انظر : إمام عبد الفتاح إمام ، فلسفة الأخلاق ص (32).

(٣)انظر : محمد همام ، العقلانية الأخلاقية لدى طه عبد الرحمن / مجلة الإحياء العددان (34-35) ص(168).

(٤)طه عبد الرحمن ، سؤال الأخلاق ص (14/13) .

ولقد عرفت الأمم والشعوب على اختلاف أزمانها وتباين بيئاتها الأخلاق والقيم ، فلم تخل أمة من الأمم من دعوات وممارسات أخلاقية فاضلة، ومن تمجيد لتلك الفضائل وإن اختلفت المبادئ والمعايير من مجتمع إلى مجتمع ، ومن عصر إلى عصر ، ولم يبالغ من قال : " الأخلاق أساس المجتمعات " و كان المؤرخ الحضاري " توينبي " [١] على حق في إشارته بأن السبب الأساسي لعجز الحضارات عن الاستجابة للتحدي ، ثم الانهيار هو فقدان قوتها الأخلاقية والقيمية والروحية [٢]،

ويؤكد المعنى "غوستاف لوبون" [٣] بقوله: " ونحن إذا ما بحثنا في الأسباب التي أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم ، وهي التي حفظ لنا التاريخ خبرها كالفرس والرومان وغيرهم ؛ وجدنا أن العامل الأساسي في سقوطها هو تغير مزاجها النفسي تغيراً نشأ عن انحطاط أخلاقها ، ولست أرى أمةً واحدة زالت بفعل انحطاطها ذكائها ".[٤]

وفي بيت الشعر تتلخص الحكمة : وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ..[٥].

ولهذا التوجه الخلقي لدى سائر الأمم أصول ومنابع استمدته من داخل النفس ومن خارجها، ويمكن إجمالها في الأمور الآتية :

1/ الأصول الفطرية للمعرفة الخلقية التي هي مشترك بين الناس جميعاً على اختلاف أزمانهم و تباين ثقافاتهم .

---

(١) توينبي ، أرنولد يوسف (1889-1975م) مثالي إنجليزي ، يُعدّ أبرز ممثلي فلسفة التاريخ التأملية ، من أهم كتبه : دراسة في التاريخ .
موسوعة الفلسفة والفلاسفة (1/420).

(٢)انظر : التفسير الإسلامي للتاريخ ص (72-73)

(٣)غوستاف لوبون (1841- 1931) فيلسوف وعالم نفس و اجتماع ، مؤسس " علم نفسية الجماهير" ،من كتّاب الغرب الذين أنصفوا الحضارة الإسلامية، من أشهر كتبه " حضارة العرب " و " وسيكولوجية الجماهير " و " الآراء والمعتقدات " .
الموسوعة العربية الميسرة ص (1569).

(٤)غوستاف لوبون ، السنن النفسية لتطور الأمم ص (127).

(٥)ديوان أحمد شوقي " الشوقيات" (1/166).

2/ بقاء آثار الرسالات في سائر الأمم فما من أمة إلا بعث إليها رسول، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِير﴾[فاطر :24]، وقد اتفقت الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى أصول الأخلاق وصالح الأعمال .

3/ دوافع الاجتماع البشري والتعايش مع الأمم والشعوب الأخرى التي تحتم الأخذ بجملة من الفضائل؛ لتنعم المجتمعات بقدر من الاستقرار والأمن والوفاء بالحاجات والمصالح ، وتحقيق النفع من الصلة بالآخرين [1].

فالتاريخ البشري متصل دائماً يخلو تماماً من الفجوات والثغرات، وقد ساهمت كل حضارة بنصيبها مهما كانت ضخ امة هذا النصيب أو ضآلته في الفكر الأخلاقي.

٢ - واقع الأخلاق (القيم) قبل الإسلام، وبعد بعثة النبي ﷺ

من المعروف لدى الجميع بأن الإسلام جاء خاتماً للشرائع، ومن المعروف أيضاً بأن الصلة بين الإسلام وهذه الشرائع حقيقة قررها القرآن الكريم والسنة النبوية في أكثر من موضع، فإذا أضفنا إلى ذلك أن جزيرة العرب وهي مهبط الرسالة قد عرفت هذه الشرائع، وآخرها شريعة موسى وشريعة عيسى عليهما السلام، فإن من المفترض أن يكون الجانب الأخلاقي في هذه الشرائع قد ترك أثره على حياة الناس قبل الإسلام، وبخاصة أن الرسول محمداً ﷺ قال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[2].

---

(١)انظر : عبد الله العمرو ، الأخلاق بين المدرستين السلفية والفلسفية ص (80) .

(٢)أخرجه أحمد في المسند (512/14) ، والبخاري في الأدب المفرد حديث رقم (273)، والبيهقي في السنن الكبرى (323/10).

وفي بعض الروايات ((بعثت لأتمم صالح الأخلاق)) ،وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث

فهل كان الأمر كما هو المفترض؟

ولكي يتجلى الأمر علينا أن نتذكر ما يلي :

أولاً : أن القرآن الكريم قرر بأن تحريفاً قد حدث للكتب التي حملها موسى وعيسى عليهما السلام إلى الناس ، وقد حدث أيضاً انحرافاً في هذه الأديان عن العقيدة التي أنزلها الله وارتضاها لهم . ونتيجة لهذا التحريف في العقائد كان ابتعاد أهل هذه الديانات عن أخلاقها، الذي جعل أثر هذه الأديان-قبل الإسلام- على العرب قليلاً.

ولم يكن حظ دين الله عند العرب قبل الإسلام أوفر حظاً منه لدى اليهود والنصارى، فعند مجيء الإسلام كانت شرائع الله التي عرفوها إما مبدلة أو منسوخة، وكان بعضها مجهولاً وبعضها متروكاً[1].

وحين جاء الإسلام كان عليه أن يرفض الخطأ، ويقرّ الصواب، ويكمل النقص، وينقي الديانة من شوائب التحريف، ولقد فعل ذلك الإسلام بادئاً بالعقيدة وواصلاً إلى الأخلاق[2].

وقد تبيّن لنا مما سبق بأن موقف الإسلام من القيم الجاهلية على ثلاث مستويات :

1- مستوى الرفض 2-ومستوى القبول 3- ومستوى التقويم لها والارتقاء بها ، والإتمام .

الصحيحة رقم (45).

وقال : هو حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره.

(١)انظر: شيخ الإسلام ابن تيمية ، اقتضاء الصراط المستقيم ص (2).

(٢) انظر : د.أحمد عبد الرحمن إبراهيم ،الفضائل الخلقية في الإسلام ص ( ).

ثانياً : سميت الفترة التي سبقت الإسلام بالجاهلية، ووصفت أخلاقها بهذا الوصف أيضاً؛ كما قال النبي ﷺ لأبي ذر حين عيّر واحداً بأمه " إنك امرؤ فيك جاهلية"[١].

يشير بذلك إلى ما كان عليه أهل الجاهلية من ذميم الخصال، من ظلم، وتفاخر بالكذب، وحميّة الجاهلية، وعصبية مقيتة، وغيرها من الرذائل!

لكن تعميم الحكم على جميع الناس بهذه الصورة فيه مخالفة للواقع؛ إذ من الثابت تاريخيّاً أن بعضهم قد تحلى بأخلاق كريمة، وخصال حميدة، وأن بقايا دين إبراهيم عليه السلام كانت موجودة في بعضهم، ولها أثر عميق في سلوكهم، الأمر الذي جعل الرسول ﷺ يقول : "الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"[٢].

وقد أثنى النبي ﷺ على حلف الفضول، الذي كان عبارة عن عهد قطعته قريش على نفسها ألاّ تدع مظلوماً في مكة حتى تنصره، وتأخذ حقه من ظالمه.

وكان النبيُّ قد حضر انعقاد الحلف وقال عنه :« لقد شهدت في دار "عبد الله بن جدعان" حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم » أي لا أحب نقضه وإن دفع لي حمر النعم مقابل ذلك، وقال «ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»[٣] .

وقد سجل العرب بعض مفاخرهم الخلقية في أشعارهم، كالشجاعة

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه ، باب (22).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، رقم (160).

(٣)أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (6/596)، وأحمد في مسنده (1/190-193) ، والبخاري في الأدب المفرد رقم (567) ، والحاكم في المستدرك (2/219-220) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي، وصححه الألباني في فقه السيرة (75) ، والسلسة الصحيحة(4/524).

والكرم ونصرة المظلوم، مع ملاحظة أن بعض هذه الصفات الكريمة كانت دوافعها حب المديح أو العصبية القبلية أو غير ذلك. ولما جاء الإسلام وجهها وربطها بالعقيدة، كما يظهر في دراسة الفضائل الخلقية في الإسلام[1].

هكذا كان الواقع قبل الإسلام، ونذكر أيضاً بأن الفضائل في الإسلام وان اتفقت مع بعض الفضائل قبله، فإن الإسلام ربطها بجذورها الحقيقية إذ جعل الخلق شرطاً للإيمان، حيث قال ﷺ : " والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن؛ قيل : من يا رسول؟ قال الذي لا يأمن جاره بوائقه"[2].

ومن هنا فقد أحدث الإسلام تغييراً هائلاً، ليس في دلائل الفضائل فحسب، بل في بواعثها، ومقاييس السلوك المترتب عليها، وكذلك في غاياتها وأهدافها.

وإذا كان العربي في الجاهلية يرى في التمسك بالأخلاق رفعةً له ولقبيلته؛ فإنه في الإسلام كان يتحلى بذات المكارم والأخلاق امتثالاً لأمر الله ورجاء ما عنده من أجر وثواب ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا﴾[الإنسان:9].

كما أن المقياس الخلقي كان في الجاهلية هو العادات والتقاليد التي سنّها الآباء والأجداد، ومعالمها هي سيرة ذوي الأخلاق والنُّهى في القوم، فكان الناشئة يعتبرونها ميزاناً يميزون به الرشد من الغي، ويلقن الكبارُ ذلك للأحداث والصغار، كما قال قائلهم :

وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ما كان عودهُ أبوه !!

فلما جاء الإسلام أصبح المقياس هو القرآن الكريم وسيرة النبي

---

(١) انظر : الدكتور عبد الحميد مدكور، د.عبد الفتاح الفاوي، دراسات في علم الأخلاق ص (77) وانظر ديوان الحماسة، في أماكن متفرقة منه.

(٢) صحيح البخاري (10/8، رقم6016)، وصحيح مسلم (68/1، رقم 46).

محمد ﷺ وسلوكه[1].

٣ - العلاقة بين مصطلح القيم والأخلاق ، وتاريخ ظهوره

مصطلح القيم مصطلح حديث الظهور ، لا يجاوز القرن التاسع عشر تقريباً، وإن كان موضوعها حاضراً في الأديان والفلسفات منذ القدم.

ووفد هذا المصطلح في الأصل من المجال الاقتصادي، ثم نقل إلى المجال الاجتماعي ، وأصبح أحد فروع علم الاجتماع تحت عنوان " علم اجتماع القيم"[2].

وانتقاله إلى المجال الأخلاقي أو المعنى الأخلاقي لم يتم داخل المجال العربي التداولي، بل من خلال الترجمة من اللغات الأجنبية، التي تم فيها الارتقاء بمعنى القيم من معناها الاقتصادي إلى المعنى الأخلاقي[3].

إذا مفهوم القيمة تطور داخل اللغات اللاتينية على غير المعنى الذي ظهر فيه.

أما استعمال الكلمة في مجال الأخلاق فلم يظهر في اللغة الفرنسية

---

(١) انظر : د.أبو اليزيد العجمي ، الأخلاق بين العقل والنقل ص (201-203).

(٢) انظر : بيومي ، علم اجتماع القيم ص (45).

(٣) انظر : د. عبدالرحمن الزنيدي ، السلفية وقضايا العصر ص (458).

إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كما ذكرنا من قبل.
و عندما ندخل في تفاصيل هذا التطور فإن البعض يعتقد بأن " لوتسه 1881م" هو أول من استخدم لفظ القيمة بالألمانية " werte" بالمعنى الفلسفي الذي يشرط ويحدد ما هو كائن، أما " نيتشه 1900م" فهو الذي أذاع مصطلح القيمة، ووسعه، ثم تتابع الفلاسفة من بعده[١].

قبل هذه التواريخ سواء في العصر اليوناني، أو ما بعده كان السائد هو مصطلح الأخلاق، كما يظهر لنا من خلال عناوين الكتب في العصر اليوناني أو العصور الإسلامية المتقدمة.

ومن خلال هذا الرصد التاريخي لمفهوم القيم نقف على العلاقة بين مفهومي القيم والأخلاق، فبعض الباحثين يرون بأن عامة القيم أو موضوعات القيم تدخل تحت مسمى الأخلاق عند الأقدمين، مما جعل كثيراً من الدارسين المعاصرين يستخدمون لفظة القيم كمرادف للفظة الأخلاق، فيدرس بعضهم الأخلاق الإسلامية تحت اسم " القيم الإسلامية" [٢].

وكثير من الفلاسفة يحصر القيم في ثلاث قيم عليا، وهي :
الحق : الذي ينبثق منه المنهج العلمي في تقويم التفكير.
والخير : الذي ينبثق منه علم الخير.
والجمال : الذي ينبثق منه علم الجمال[٣].

وهنا تتأكد العلاقة فالأخلاق في النظر الفلسفي أيضاً تنضوي تحت قيم الخير في التقسيم القيمي المعروف .

فالأخلاق هنا تدخل في القيم ، وذهب إلى هذا المذهب بعض

---

(١) انظر : صلاح قنصوه ، نظرية القيم ص (20).
(٢) انظر : د. الزنيدي ، السلفية وقضايا العصر ص (461).
(٣) انظر :توفيق الطويل، أسس الفلسفة ص (378).

الباحثين ، فهو يرى بأن القيم أوسع مجالاً من مجال الأخلاق[1].
وقد يتناوب المصطلحان ، كل منهما يحمل معنى الآخر كما سبق التفصيل فيه.

٤ - هل أرخ المسلمون للأخلاق ؟ وهل كتبوا نظرية أخلاقية ؟

ويقصد بالنظرية الأخلاقية أن تدرس الأسس العقلية والدينية للقواعد والمبادئ التي ينبغي أن يعمل الإنسان بمقتضاها في مناحي الحياة المختلفة، اعتماداً على المصادر الإسلامية.
وتبحث هذه النظرية عن إشكالات فلسفية، تسائل أسس سلوك الإنسان ومعاييره، ومصدر هذه المعايير ؟
ومن هذه الإشكالات على سبيل المثال، معيار الخير والشر، ومصدر الإلزام الخلقي، ومفهوم المسؤولية، وشروطها وعلاقتها بالحرية الإنسانية، وعلاقة الحرية الإنسانية بالحتمية والقدر.
وأيضاً مفهوم الواجب الأخلاقي وعلاقته بالخير الأخلاقي.

---

(١) انظر : د.عبد الله الفيفي ، نقد القيم – مقاربات تخطيطية لمنهاج علمي جديد ص (14-18).

وإمكان وجود الجزاء الأخلاقي، ونيّة الإنسان ودوافعه !!

وكانت هناك ثلاثة مواقف أمام هذه الفكرة:

١ - المثبتون : وهؤلاء تحمسوا كثيراً، وكتبوا كتابات متعددة عن " تاريخ نظرية الأخلاق لدى المسلمين"، وقد نحى بعضها منحى دفاعياً، يقصد فيه إثبات أن لدينا نظرية أخلاقية كما لدى الغرب، بل نحن سبقناهم بقرون، غير أن أسلافنا لم يُسمّوا حقل الأخلاق أخلاقاً، بل بحثوا مسائله تحت مباحث علوم أخرى، هي علم أصول الفقه، وعلم الكلام، والتصوف.
ويمثل هذا الموقف أو هذا المستوى الدكتور أحمد محمود صبحي في كتابه " الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي"، ودراسة الدكتور ماجد فخري" النظريات الأخلاقية في الإسلام"[١].

٢ - النافون : وهؤلاء المتعصبون ضد التراث الإسلامي، الذين أنكروا وجود نظرية أخلاقية كما لدى الغرب.
وقالوا بأن حقل نظرية الأخلاق الإسلامية حقل حديث نسبياً إذ يمكن أن تؤرخ بدايته مع الدراسة الرائدة الأصيلة للشيخ محمد عبد الله دراز، التي كتبها ابتداء بالفرنسية في عام 1948م تحت

---

(١) انظر : خديجة جعفر، نظرية الأخلاق الإسلامية : عرض موجز ص (2) ، موقع مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق على الشبكة العالمية.

عنوان " دستور الأخلاق في القرآن".

وقد طرح فيها تساؤلات الفلسفة الأخلاقية الشائعة في حقل الأخلاق في أوروبا، والذي درسه بفهم وعمق، ثم أجاب عن هذه التساؤلات من خلال القرآن الكريم، ومفسراً كذلك، بل ناقداً لكثير من المقولات الكلامية والفقهية والأصولية في العلوم الإسلامية المختلفة، مشيراً إلى دلالاتها الأخلاقية.

ولم يتخذ الشيخ دراز هذا الموقف الناقد من التراث الإسلامي فقط، بل تبنى موقفاً ناقداً تجاه المقولات الفلسفية الأخلاقية الغربية.

ويمثل هذا الموقف أو المستوى المستشرق " دي بور " في دراسته " الأخلاق والحياة الأخلاقية عند المسلمين "، ويغلب على هذه الدراسة المعالجة التي يغلبُ عليها النظرة الاستشراقية منهجاً وتحليلاً ونتائجاً، فهو يستخدم المنهج الوضعي التاريخي الذي يضيق للغاية لينحصر في التأثير، حيث يرد إبداعات الفلاسفة المسلمين إلى أصول سابقة عليهم، كما يرد قواعد السلوك في الجماعة الإسلامية إلى أمم وشعوب وديانات مختلفة سابقة، ويتوسع في هذه المؤثرات : المسيحية واليهودية والديانات الفارسية والفلسفات اليونانية المختلفة[1].

ومثله تقريباً المنهج الذي سلكه المستشرق " كارادي فو " في " دائرة المعارف الإسلامية في مادة " أخلاق"، ويزعم فيه بأن الأخلاق كعلم مستقل لم يلق حظوة عند المسلمين"، وقد جعل كل فكرة عند المسلمين هي مجرد صدى للفلسفة اليونانية، وقد تجاوز وتجاهل مئات المؤلفات في هذا العلم، ونظر فقط إلى ابن مسكويه في كتابه تهذيب الأخلاق، وجعله هو بداية التاريخ

---

(١) انظر : الدكتور أحمد عبد الحليم عطية ، دراسات أخلاقية ص (16).

الأخلاقي لدى المسلمين !
وتقفى أثره أحمد أمين في كتابه " الأخلاق" حيث يرى أن الإسلام لا يعرف المذاهب الأخلاقية معللاً ذلك بأن القرآن والحديث كفيا المسلمين النظر في المسائل الأخلاقية، وأن ما في القرآن والحديث من توجيهات أخلاقية لا يصلح لإقامة مذهب خلقي بالمعنى الفلسفي، إذ لا يعدو أن يكون طائفة من حكم وأمثال ومواعظ[١].
ومثل " احمد أمين " كان المفكر المغربي محمد عابد الجابري في كتابه " العقل الأخلاقي العربي" يذهب ذات المذهب [٢]، بل شن حملة قاسية حتى على الدراسات الحديثة التي حاولت أن تكتب نظرية أخلاقية من خلال القرآن الكريم ، وتحديداً دراسة الشيخ دراز رحمه الله " دستور الأخلاق في القرآن الكريم" ويرى بأنه قد كتبه وهو متأثر بالنظرية الغربية الحديثة ، خصوصاً نظرية كانط في الواجب الأخلاقي، وقال ساخراً : " لقد بدا دراز كمن يقرأ القرآن في الأخلاق وليس الأخلاق في القرآن"[٣].

٣ - المتوسطون بينهما : وهم يمثلون حالة وسط ، وهو مستوى الاعتدال، مذهب التفصيل، فإذا قصد بالنظرية الأخلاقية على الصورة التي نهجها الغرب قديماً أو حديثاً؛ فليس هناك نظرية أخلاقية بهذا المعنى.
لكن الكتابة الإسلامية أو التراث الإسلامي لم تغب عنه الكتابات الأخلاقية المميزة، بل والمؤثرة عبر التاريخ الحضاري، فالتراث

---

(١) انظر : أحمد أمين، الأخلاق ص (157).
(٢) انظر :تركي علي الربيعو، العقل الأخلاقي العربي في فكر محمد عابد الجابري ، مجلة التسامح العدد (7) ص (123-138).
(٣) انظر : سامر رشواني ، الدرس الأخلاقي للقرآن : قراءة في بعض المقاربات الحديثة ص (166) ، موجود على الشبكة العنكبوتية.

والكتابات التراثية خير شاهد لهذه الفكرة، بل حتى الكتابات التي تأثرت بالآخر لم تكن مثله تماماً، بل اختلفت معه، وناقشت ، ولازمت روح الإسلام، وإن لم تكن صحيحة في كل موطن أو في كل رأي !

مثل كتاب " تهذيب الأخلاق " لمسكويه 421هـ، أو الفيلسوف أبو بكر الرازي 313هـ في كتابه " الطب الروحاني"، أو الراغب الأصفهاني 502هـ في كتابه " الذريعة إلى مكارم الشريعة".
أما المحدثون والفقهاء فكانوا -وهم -المنشغلون ببيان الأحكام الشرعية وأدلتها لا يقصرون النظر على الجانب الفقهي، بل ينظرون إلى أبعد من ذلك، إلى مالآتها ومقاصدها التي ترتبط في كثيرٍ منها بقيم محددة، مثل نبذ الزور والعمل به كمقصد من مقاصد الصيام.
والابتعاد عن الفحشاء والمنكر كمقصد من مقاصد الصلاة، وقد أفردوا لإبراز هذه المقاصد مؤلفات خاصة تبينها وتفصلها.
كما وضعوا كتابات عديدة ورسائل في منظومة الأخلاق وأثرها في التزكية.
فمثلاً وضع الإمام ابن المبارك 181هـ كتاباً في "الزهد"، وكذا وكيع بن الجراح 197هـ، وكذا أحمد241هـ !
ووضع الإمام البخاري 257هـ كتابه المسدد " الأدب المفرد".
وبعدهم بزمن وضع الماوردي 450 كتابه " أدب الدنيا والدين".
والإمام الغزالي505هـ في كتابه " إحياء علوم الدين"[1].

---

(١) انظر للتوسع في هذه المسألة : الدكتور أبو اليزيد العجمي ، هل أرخ المسلمون لعلم أخلاق إسلامي ؟ مجلة كلية دار العلوم، العدد (11) ص (211-250). وكتابه " الأخلاق بين العقل والنقل " ص (143-182).

5- أهمية تعلّم وتعليم القيم الإسلامية

وأهم أهداف تعليم القيم الإسلامية كما يرى الدكتور " مقداد يالجن" في كتابه " علم الأخلاق الإسلامية" هي :

1- بيان حقائق القيم الأخلاقية الإسلامية ومبادئها وميادينها.

2- التبصير بشمولية روح الأخلاق الإسلامية على كل تصرفات وسلوكيات الإنسان الفردية والاجتماعية.

3- إظهار خصائص ومميزات القيم الإسلامية بالنسبة إلى الأخلاقيات البشرية الوضعية.

4- وضع المعايير الخلقية الإسلامية أمام المتعلمين ليستطيعوا توجيه سلوكهم وتقويم السلوكيات في ضوئها.

5- تكوين القناعة بثبات القيم الإسلامية وأنها ليست خاضعة للتغيرات الاجتماعية، بل إن التغير الاجتماعي يجب أن يخضع لهذه القيم.

6-تكوين الإيمان بالعلاقات الثابتة بين العقيدة الإسلامية والقيم الأخلاقية الإسلامية.

7-إبراز أهمية القيم الإسلامية وأثرها من الناحية العلمية والاجتماعية والإنسانية والحضارية.

8-تكوين الشعور بالحب للفضائل، والكراهية والنفور من الرذائل ومساوئ الأخلاق.

9-تنمية الميول نحو العمل بالقيم الأخلاقية الإسلامية، والدعوة إليها ما استطاع المسلم إلى ذلك سبيلاً[1].

ﷺ المبحث الأول : تعريف القيم لغة واصطلاحاً

المطلب الأول : تعريف القيم لغة :

- القيم جمع قيمة ، والقيمة ثمن الشيء بالتقويم ، تقول : تقاوموا فيما بينهم.
- وكذا إذا انقاد الشيء واستمرت طريقته فقد استقام لوجهه[2].
- وماله قيمةٌ إذا لم يدم على شيء، واستقام إذا اعتدل ، وقومته : أي عدلته فهو قويم ومستقيم[3].
- ويقال : قام فلان على شيء إذا ثبت عليه، ومنه قوله تعالى ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾[آل عمران:113] ، أي مواضبة على التدين ثابتة[4].
- والإقامة في المكان : الثبات ، وإقامة الشيء : توفيّه حقه ، وتقويم الشيء : تثقيفه ، قال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين:4][5].

ومما تقدم يتجلى لنا بأن مادة " قَوَمَ" استعملت في المعجم العربي بمعانٍ عدة منها :

1- قيمة الشيء وثمنه. 2- الاستقامة والاعتدال 3- الثبات والدوام.

---

(١) انظر : الدكتور مقدار يالجن، علم الأخلاق الإسلامية ص (5-6).

(٢) ابن منظور : لسان العرب (12/500).

(٣) الفيروز أبادي : القاموس المحيط (4/170).

(٤) ابن منظور : لسان العرب (12/500).

(٥) الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن ، ص (690).

4-نظام الأمر وعماده 5- توفية الشيء حقه[1].

ولعل أقرب هذه المعاني الواردة في القاموس العربي إلى موضوعنا هو معنى الثبات والدوام والاستمرار على الشيء ، وهو الأمر الثابت الذي يحافظ عليه الإنسان ويداوم على مراعاته في جميع شؤونه وأحواله.

وقد وردت مشتقات اللفظ في مواضع عدة من القرآن الكريم، وقد أنجزت الباحثة د/ نوال زرزور رسالة جامعية تحت عنوان " معجم ألفاظ القيم الأخلاقية وتطورها الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم" . ورصدت فيها المدلول اللغوي للقيمة، واستعمال القرآن الكريم للجذر " ق و م" ، وخلصت فيها إلى أن القيمة أخذت من الجذر أو مادة " ق و م":

1- وقد استعمل جذرها لدلالة على معانٍ مختلفة هي : الانتصاب والوقوف، وقام الأمر إذا اعتدل واستقام، والقوام العدل.

2-أما في القرآن الكريم فقدت وردت المادة بصيغها المختلفة (661) إحدى وستين وستمائة مرة، تدور كلها حول الثبات والنهوض والانتصاب والاعتدال بمعانيه المادية والمعنوية، والتعديل إزالة الاعوجاج[2].

وأيضاً هذا ما يؤكده الباحث فتحي حسن ملكاوي في بحثه الجاد " التأصيل الإسلامي لمفهوم القيمة" [3].

ويؤكد ثراء المعنى الدلالي في المعجم المعرفي القرآني :

" فالقيم جمع قيمة، وجذرها قَوَمَ، ووردت مشتقاتها في القرآن الكريم في حوالي (659) ستمائة وتسع وخمسين مرة.

منها : قاموا، وأقام، وقائم، وقيوم، وقوام، وتقويم في حوالي (160) مرة.

---

(١) الدكتور مانع المانع : القيم بين الإسلام والغرب ص (14-15).

(٢) انظر :الدكتور خالد الصمدي، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية ص (10).

(٣) مجلة إسلامية المعرفية، السنة 14، عدد 54، 1429هـ.

واستقام ومستقيم في (47) مرة، وقوْم في (382) مرة.

فالله سبحانه تعالى حي قيوم، يقوم بذاته، ويستغني عن غيره، ويسوس الأمور ويسيطر عليها، فهي خاضعة ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[طه: 111]، وهو سبحانه تعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الرعد:33]، فهو عليم، ولها حفيظ، وعليها رقيب.

والدين القيّم الموصل إلى كل خير بلا انحراف أو زيغ.

والصراط المستقيم الواضح الموصل إلى غايته وهدفه دون عناء وجهد، ودون ظلال في الطريق ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾[الفاتحة:6]، والقرآن يهدي للتي هي أقوم من العقائد والشرائع والأخلاق ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[الإسراء:9].

وغير هذه المعاني الواردة في القرآن الكريم كثيرة جداً، ويتبيّن لنا من رصد هذه المحددات المفهومية التي تنتمي إلى المعجم المعرفي القرآني، واستقراء هذه الدلالات أن القيم ليست عنصراً جزئياً ينحصر في دائرة ضيقة، وإنما هي مبدأ وغاية ووصف خلقي وحافظ مقاصدي، وأنها ذات دلالة على الثبات والاستقامة والوزن[1].

ويخلص الأستاذ فتحي حسن ملكاوي في بحثه الآخر " تنوع مصادر الاجتهاد في فهم القيم الأخلاقية" إلى أن جماع المعاني اللغوية لمشتقات " قوم " في القرآن الكريم هي على الوجه الآتي :

1- المسؤولية والرعاية والحساب والجزاء.

2- الوزن والفائدة والثمن والخيرية.

3-الاستقامة والصلاح.

4-الثبات والاستقرار والتماسك.

5-الجماعة من الناس.

---

(١) انظر : الدكتور عبد الرزاق بلعقروز ،روح القيم وحرية المفاهيم ص (34-35).

المطلب الثاني : القيم اصطلاحاً

القيم كما يقول بعضهم مصطلح مراوغ ومثير للخصومة الفكرية، فله تعريفات شتى متباينة، فكل عرفها من أرضيته الفكرية التي انطلق منها، فمعنى القيم لدى الاقتصاديين يختلف عنه عند علماء النفس أو في علم الاجتماع.

ولكننا نحاول في هذا الموطن أن نقاربه أولاً في الفكر الغربي، فمن تلك التعريفات ما يلي :

1- في المعجم الفلسفي " القيمة تطلق على ما يتميز به الشيء من صفات تجعله مستحقاً للتقدير كثيراً أو قليلاً، فإن كان مستحقاً للتقدير بذاته، كالحق والجمال والخير كانت قيمته مطلقة، وإن كان مستحقاً للتقدير من أجل غرض معين كالوثائق التاريخية، والوسائل التعليمية، كانت قيمته إضافية"[1].

2- الفيلسوف الأمريكي (بيري) يقول :

" إن كلمة القيمة تشير إلى تلك الناحية من الحياة الإنسانية التي تعودنا أن نستعمل لها الكلمات المباركة (المستحسنة) ، وهي تشير أيضاً إلى دلالات أخرى ، وتستعير المعنى البراق لصفات مثل : الخير ، والحسن ، والحق ، والوجوب ، وجدير ، وجميل ، ومقدس ، وعادل ، وأسماء مثل : السعادة ، والرفاهية ، والحضارة ، وهي تشير إلى اسم مشترك لما تعنيه هذه

---

(١) جميل صليبا (2/213).

الكلمات"[1].

وصفوة القول بأن التعريفات للقيمة كثيرة ، وآتية من حقول مختلفة، ولكنها تضفي على القيم معناها الحديث الذي يحمل بكل تأكيد بُعداً أخلاقياً.

المطلب الثالث : القيم في المنظور الإسلامي (القيم الإسلامية)

إن مصطلح القيم في المعجم الغربي كما سبق نجد أصلها في المعنى الاقتصادي، وهي لا تستند إلى أساس ثابت في القيم، بل إلى نسبيتها وتاريخيتها، خاصةً في مستوى المالآت الواقعية لها، فضلاً عن انفصالها عن مصادر متعالية في التنظير؛ من جراء حصول التبدل مع تنامي الاستقلالية والفردانية في الغرب؛ لأن الالتزام لديهم لم يعد يأتي من الله، ولا من الدين، ولا من الدولة، ولا من المجتمع، بل من الفرد ذاته[2].

في حين أن القيم في الرؤية الدينية الإسلامية تفارق هذا المنظور، وذلك بتركز مفهومها على ما هو إيجابي أكثر " فهي معنى خفي يجده الإنسان في قلبه ولا يدركه في حسه، لكن مع وجود هذا الخفاء، يبقى هذا المعنى هو الذي يهديه في حياته، ويرقى بإنسانيته، أو بصيغة أوجز، إن القيم هي عبارة عن معانٍ فطرية هادية وسامية"[3].

صحيح بأن علماء الإسلام لم يتعرضوا لمصطلح القيم بشكل مستقل؛ ذلك أنه مصطلح من المصطلحات الغربية الوافدة، إلا أن الباحثين المحدثين قد ساهموا في وضع تعريفات للقيم بالاستناد إلى الرؤية الإسلامية، منها على

---

(١)رالف بارتن بيري ، آفاق القيمة – دراسة نقدية للحضارة الإنسانية ص (16).

(٢) انظر : الدكتور عبد الرزاق بلعقروز ، روح القيم وحرية المفاهيم ص (20-21).

(٣) سؤال العمل ، طه عبد الرحمن ص (209).

سبيل المثال :

1- تعريف الدكتور علي خليل أبو العينين قال فيه :

"القيم الإسلامية مجموعة من المعايير والأحكام النابعة من تصورات أساسية عن الكون والحياة و الإنسان والإله كما صورها الإسلام، تتكون لدى الفرد والمجتمع من خلال التفاعل من المواقف والخبرات الحياتية المختلفة، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات لحياته تتفق مع إمكانياته، وتتجسد في الاهتمامات أو في السلوك العملي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة"[١].

2- تعريف الدكتور مهدي عبد الحليم في بحثه المميز " تعليم القيم فريضة غائبة" ، وهي تعريف يجري على سنة المناطقة وعلماء التقعيد، يقول فيه :

"هي معايير عقلية ووجدانية، تستند إلى مرجعية حضارية، تمكن صاحبها من الاختيار بإرادة حرة واعية وبصورة متكررة نشاطاً إنسانياً، يتسق فيه الفكر والقول والفعل، يرجحه على ما عداه من أنشطة بديلة متاحة فيستغرق فيه، ويسعد به، ويحتمل من أجله أكثر مما يحتمل في غيره دون انتظار لمعرفة ذاتية"[٢].

3- تعريف الدكتور حامد زهران في كتابه القيم " علم النفس الاجتماعي" وفيه يعرف القيم بقوله :

" حكم يصدره الإنسان على شيء ما، مهتدياً بمجموعة المباديء والمعايير التي ارتضاها الشرع، محدداً المرغوب فيه، والمرغوب عنه"[٣].

4- وعرفها بعض الباحثين بقوله :

" المباديء والصفات الفضلى التي أقرها أو حث عليها الإسلام؛ لتكون أساساً

---

(١) الأخلاق والقيم التربوية في الإسلام، ضمن موسوعة نضرة النعيم (1/79).

(٢)تعليم القيم فريضة غائبة، مجلة المسلم المعاصر، عدد65/66.

(٣) علم النفس الاجتماعي ص (132).

في التعامل مع النفس ومع الغير، في مجالات الحياة الإنسانية كافة"[1].

(١) مقاصد الشريعة و علاقتها بالقيم الأخلاقية ص (20).

بسم الله الرحمن الرحيم

• المبحث الثاني : مصادر القيم الإسلامية

مدخل في مفهوم المصدر :

المصدر في اللغة : هو ما ينشأ عنه الشيء من صدر صدوراً.

يقال : صدر الأمر، وقع وتقرر، وصدر الشيء عن غيره أي نشأ.

ويقال : فلان يصدر عن كذا، أي يستمد منه[١].

والمقصود بالمصادر : هي الأصول والمنابع التي يستمد منها المرء في سعيه للوصول إلى الحق[٢].

و تتجلى أهمية هذه الأصول باعتبارها الطريق الذي يوصلك إلى الحقائق المختلفة.

فإذا كانت الأصول صحيحة قادرة على الكشف عن الحق وبيانه أورثت السائر على ضوئها السلامة في طريقه، وبلغته إلى معرفة صحيحة يمكن الوثوق بها والاعتماد عليها.

وإن كان الأصول ضعيفة أو قاصرة عن تحقيق ذلك أوقعت السائر بها في الباطل بحسب ما فيها من قصور.

ويسمي بعض الباحثين هذه المصادر بالمعايير؛ لأن المعيار هو المقياس والميزان الذي يمكن الاعتماد عليه في التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح من الأقوال والسلوك والأفعال.

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، باب الراء-فصل الصاد ، والمعجم الوسيط (مادة صدر).

(٢) انظر: د.عبد الله العمرو ، الأخلاق بين المدرستين السلفية والفلسفية ص (125).

وقد اتفق علماء الأخلاق على أهمية هذه المصادر والمعايير الخلقية التي ينبغي الاحتكام إليها، ولكنهم اختلفوا في تحديدها، وتعددت وجهات نظرهم.

ولا أحد يشك في صعوبة تحديد نسبة وجود مقتضيات الحكم الأخلاقي في كل فعل؛ ولذا فهذا الحكم يتطلب نظراً دقيقاً، وقد تشتبه الأمور وتختلط، فلا يستطيع معرفتها إلا القليل من الناس.

وكان من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن تكفل ببيان ذلك لهم، من خلال الوحي الإلهي، فقد وضع الوحي المبادئ والأحكام الأخلاقية العامة التي تشكل الإطار العام للحياة الكريمة الفاضلة، وترك كثيراً من تفصيلات تلك الأحكام والمبادئ وتطبيقاتها إلى ما أودعه في النفس البشرية من عقل سليم وضمير يقظ .. ومعايير أخرى وعناصر قد تنبثق من الأصول العامة، تساهم في ضبط الأفعال حتى تكون أخلاقاً إسلامية صحيحة مقبولة عند الله[1].

وعليه يكون لدينا مصادر متعددة في الإسلام، تتمثل في الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة السليمة، والعرف، وقد يزيد بعضهم الضمير والقياس، والمصلحة.

وقد يدخل بعضها في بعض كما سنرى -إن شاء الله -في دراسة كل مصدر على حدة .

---

(١) انظر : د.مفرح القوسي، دراسات في النظام الأخلاقي ص (38)، د.عبد الرحمن الزنيدي، السلفية وقضايا العصر ص (525).

1- المصدر الأول : القرآن الكريم.

والقرآن كما عرفه العلماء اصطلاحاً :

" هو كلام الله المنزل على نبيه محمد بواسطة جبريل عليه السلام المعجز في لفظه، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر، المتحدى بأقصر سورة منه، المكتوب في المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس "[1].

عندما ينظر المرء إلى القرآن الكريم يجد بأن أعظم دستور أخلاقي على الإطلاق، إنه لم ينزل ليكون كتاب علوم أو مجرد كتاب آداب، وإنما نزل ليكون كتاب هداية جامع، يعني بتأصيل مكارم الأخلاق التي تصلح بها الحياة وتسعد النفوس، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحث الناس أن يصلوا إلى أعلى درجات الكمال، يدل على ذلك آيات كثيرة، نذكر طرفاً منها:

قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:9].

وقال تعالى ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:90].

وقوله تعالى ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ

---

(١) محاضرات في الثقافة الإسلامية- للسنوسي ص (2).

إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون﴾[البقرة:177].

وغيرها من الآيات الكريمة التي تدل على شمول أخلاق القرآن، فهي تستوعب وتتسع لكل عمل إرادي أو نشاط إنساني كريم لأن قانون هذه الأخلاق قد رسم منهج السلوك للإنسان في جميع مجالات حياته وعلاقاته في شتى النواحي الفردية والاجتماعية[1]، يقول الدكتور دراز في قانون الأخلاق في الإسلام:

" لا نكتفي بأن نقول إن هذا القانون لم يدع للنشاط الإنساني في ناحيتيه الفردية والاجتماعية، مجالاً حيوياً أو فكرياً أو أدبياً أو روحياً إلا رسم له منهجاً للسلوك وفق قاعدة معينة، بل نقول إنه تخطى علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته ببني جنسه، فشمل علاقته بالكون في جملته وتفصيله، ووضع لذلك كله ما شاء الله من الآداب المرضية والتعاليم السامية، وهكذا جمع ما فرقه الناس باسم الدين وباسم الفلسفة، ثم كان له عليهما المزيد"[2].

فالقرآن الكريم هو المصدر الأساسي والأسمى للقيم الإسلامية والتي تنتظم فيما يلي :

-قيم اعتقاديه، وتتحدث الآيات بالتفصيل عن قيم تتعلق بالعقيد، وهي ما يجب على المكلف اعتقاده في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر..الخ.

-قيم خُلُقية : وفيه تتحدث الآيات عما يجب على المكلف أن يتحلى به من الفضائل وما يتخلى عنه من الرذائل .

---

(١) انظر : الدكتور عبد الستار محمد نوير، أصول الأخلاق في القرآن الكريم ص(404).

(٢) دراسات إسلامية للدكتور محمد عبد الله دراز ص (111).

-قيم عمليّة : تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات وهي على نوعين:

العبادات من صلاة وزكاة وحج ونذر ونحوها، ويُقصد بها تنظيم علاقة الإنسان بربه.

والمعاملات من عقود وتصرفات وعقوبات وجنايات وغيرها، ويُقصد بها تنظيم علاقات المكلفين ببعض سواء أفراداً أم جماعات أم أمماً، وهذه تضم إليها ما يتصل بالأسرة، والقضاء ونظم الحكم وأصوله، ومعاملات الدولة الإسلامية، ومعاملات غير المسلمين، كما تضم القيم المادية والاقتصادية[1].

ويكفي أن نقول بأن المصدر الأول من مصادر القيم الإسلامية، وهو القرآن الكريم قد اشتمل على كل القيم التي تهذب النفس أو تطهرها من عللها و أمراضها، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس:57].

وقد قدم القرآن الكريم لعلماء الأخلاق مادة وفيرة استمدوا منها أفكارهم وتصوراتهم عن مكارم الأخلاق التي ينبغي أن تتزكى بها النفس، وعن الأسس الضرورية للأخلاق، والغاية التي ينبغي أن تكون هدف الإنسان في سلوكه، وما إلى ذلك من قضايا الأخلاق وأصول القيم[2].

---

(١) انظر: الدكتور مانع المانع، القيم بين الإسلام والغرب ص (184).

(٢) انظر: الدكتور عبد المقصود خيشة، النظرية الخلقية في الإسلام ص (22).

وقد رأيت أن أنقل هنا بعض نصوص المفسرين الذين كانت لهم عناية فائقة بتفسير القرآن الكريم، وتدلل هذه النصوص على مسألة اشتمال القرآن على اشتمال القرآن على مفردات الأخلاق أو علم الأخلاق، حيث يقول الإمام الرازي في تفسيره :

"والقرآن يشتمل على مالا بد منه في هذا الباب، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:90]، وقال ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف:199].

وحين ذكر في موضع آخر اشتمال القرآن على علم الأخلاق قال :

"وقد حصل في القرآن من مباحث هذا العلم ما لا يكاد يوجد في غيره، كقوله تعالى وقال ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف:199]، وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:90][1].

وتبعه على ذلك برهان الدين البقاعي وآخرين[2].

"والأوامر والنواهي التي ترد في القرآن على العموم والإطلاق من غير تحديد ولا تقدير (كالأوامر والنواهي التي تتعلق بالأخلاق) ، كالعدل والإحسان والوفاء بالعهد والعفو .. وأنها بحسب كل مقام وعلى ما تعطيه شواهد الأحوال في كل موضع، لا على وزن واحد ولا حكم واحد ثم وكل ذلك إلى نظر المكلف؛ فيزن بميزان نظره،

---

(١) تفسير الرازي (17/ 253).

(٢) انظر : معتز الخطيب، آيات الأخلاق: سؤال الأخلاق عند المفسرين ص(93).

ويهتدي لما هو اللائق والأحرى في كل تصرف؛ آخذاً ما بين الأدلة الشرعية والمحاسن العادية؛ كالعدل والإحسان والوفاء بالعهد وإنفاق عفو المال وأشباه ذلك"[1].

بل إن الشاطبي نفسه رحمه الله تعالى في موطن آخر يشير إلى أن كثيراً من الأوامر القرآنية ﷺ إنما عينت الأطراف القصوى في الخير والشر، وتُرك ما بين ذلك مسكوتاً عنه حتى يكون العقل ينظر فيما بينها بحسب ما دلّ عليه الشرع؛ فيميز بين المراتب بحسب القرب والبعد من أحد الطرفين؛ كي لا يسكن إلى حالة هي مظنة الخوف لقربها من الطرف المذموم، أو مظنة الرجاء لقربها من الطرف المحمود، تربية حكيم خبير[2].

---

(١) الموافقات للشاطبي (3-105).

(٢) الموافقات (3/106).

2- المصدر الثاني : السنة النبوية.

تعد السنة الشريفة المصدر الثاني للتشريع والأخلاق؛ لأن مهمتها الأساسية توضيح وبيان لما جاء في الكتاب العزيز كما أخبر الحق بذلك في قوله تعالى لنبيه ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:44]. ومع هذا فقد أتت السنة النبوية بجديد في مجال التشريع والأخلاق؛ لأنها وحي من الله تعالى إلى رسوله الكريم كالقرآن الكريم إلا أنها وحي بالمعنى فقط، قال تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم:4]. وقد تعرض العلماء لتعريف السنة، وما يهمنا هنا لبيان حجية السنة ومكانتها في التشريع تعريف الأصوليين، فالسنة عندهم : " ما نقل عن النبي من قول أو فعل أو تقرير ".

وقد اتفق أهل العلم على أن السنة النبوية قد تستقل بالتشريع كما ذكرنا من قبل، وأنها المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، وقد جاء في الحريث الصحيح أنه قال : " ألا و إنني قد أوتيت القرآن ومثله معه" [1].ومما يدل على حجية السنة واستقلالها في التشريع نصوص القرآن الكريم التي دلت بشكل قاطع وفيها الأمر بطاعة الرسول ، واعتبار طاعة الرسول من طاعة الله، قال تعالى ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[النساء:80]، وقال تعالى ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[آل عمران:132]؛ ولذا يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : " إن كل حديث صحيح لم يرد ما ينسخه، وكان موضوعه جزءاً من رسالة النبي ، هذا الحديث له نفس السلطة الأخلاقية التي للنص القرآني، ولو اشتمل الحديث علاوة على ذلك تفصيلات وتحديدات أكثر مما اشتمل عليه

---

(١) رواه أبو داود في السنن (610/2)، والإمام أحمد في مسند (131/4).

النص القرآني، فإن هذا الحديث هو الذي يبيّن النص القرآني، ويفسره، ويبيّن نماذج تطبيقه"[1].

فإذا كانت السنة النبوية بهذه المكانة العظيمة بعد كتاب الله عز وجل؛ فإنها مصدر عظيم من مصادر القيم الإسلامية، فكل ما صدر عن الرسول من أقوال وأفعال وتقريرات يعتبر من القيم؛ لأن السنة حجة كما أسلفنا، وواجب على المسلمين الاتباع لكل ما صدر عن النبي بصفته رسول الله وكان مقصوداً بها التشريع والإقتداء .

وأما ما صدر عن طبيعته البشرية فهو قيمة ملزمة إذا قام دليل على أن المقصود من فعله الإقتداء، وقيمةٌ غير ملزمة إذا كان غير ذلك، فهي قيمة تخضع للاختيار[2].

وأما كيف نستنبط القيم من نصوص الكتاب والسنة المطهرة؟

فلا بد لمن يريد القيام بهذا الاستنباط أن يعرف طرق الفقهاء فيه، وأن يدرك المدلولات اللغوية الواسعة، والفهم العربي الأصيل لهذه النصوص، والطريقة التي اتبعها النبي في بيان أحكام القرآن، ثم لا بد له أيضاً من التعرف على الطرق المعنوية للاستنباط من غير النصوص، كالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة والذرائع، وما إلى ذلك[3].

وفي نهاية المطاف فالسنة النبوية مصدر زاخر بالقيم الإسلامية، وحياة النبي كلها مواقف نبيلة، والمجتمع المسلم الذي عاصر النبي لا مثيل له في التاريخ البشري، ولأن السنة النبوية مصدر تشريعي لهذه الحياة قامت بالتوجيه ملازمة للقرآن الكريم واعتبارها مصدراً تشريعياً للقيم بعد القرآن أمر لازم ضروري ومهم، وواجب اشتقاق القيم منها ومن القرآن الكريم[4].

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن ص (41).

(٢) انظر :د. عبد الوهاب خلاف ، علم أصول الفقه ص (43-44).

(٣) انظر : الشيخ محمد أبو زهرة ، علم أصول الفقه ص (84).

(٤) انظر: الدكتور مانع المانع، القيم بين الإسلام والغرب ص (191).

3- المصدر الثالث : الإجماع.

هو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي، فهو إذا مصدر من مصادر القيم الإسلامية، وهو لم يكن موجوداً في عهد الرسول ؛لأنه لا حاجة إليه مع وجود المشرع، وإنما أوجد بعده للحاجة إليه لا سيما في النوازل والأحداث التي لا يوجد فيها نص صريح.

والإجماع في الاصطلاح : "هو اتفاق المجتهدين من أمة محمد بعد وفاته في عصر من العصور على حكم شرعي في واقعة معينة".

والإجماع حجة شرعية يجب العمل به فهو ثالث مصادر الشريعة الإسلامية.

وأدلة حجيته :

-أولاً : من القرآن الكريم.

قال تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾[النساء:115].

ووجه الاستدلال : إن في الآية وعيداً لمن ترك سبيل المؤمنين ، والإجماع هو سبيل المؤمنين؛فا تباعه واجب وتركه محرم .

-ثانياً: السنة النبوية.

ولقد جاءت فيه أحاديث كثيرة تخبر بعصمة هذه الأمة إذا اتفقت أن يقع منها الخطأ في ذلك الاتفاق ، منها قوله " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على

أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله"[1].

علق الإمام البخاري على هذا الحديث بقوله : بأن هذه الطائفة كما في بعض الروايات هم أهل العلم.

و تأكيداً لكلام الإمام البخاري فإن المقصود بالإجماع "هو إجماع أهل الرأي والاجتهاد، فلا يعتبر بقول العوام والمتكلم والمتحدث الذي لا بصيرة له بأصول الفقه"[2].

ومهمة الإجماع جد خطيرة ومهمة، فهي يقوم بدور حاسم في أي مشكلات طارئة، ذات طابع أخلاقي أو فقهي أو عبادي.

4- العقل .. (القياس).

" العقل هبة الله العظمى ومنحته للإنسان، به أكرمه وفضله على كثير من مخلوقاته، كما أنه عز وجل كرم العقل إيما تكريم، حيث جعله مناط التكليف عند الإنسان، وشرع له من الأحكام ما يكفل حمايته والمحافظة عليه- باعتباره أحد الضروريات الخمس التي أنزلت الشرائع للمحافظة عليها- فحرم كل ما يضعفه أو يزيله، وأوجب، وحث في النظر والتدبر والتفكر في آياته المقروءة والمنظورة في الأنفس والكون والآفاق"[3].

وللعقل أهمية كبيرة في الإسلام :

- فهو أداة الإدراك التي يتم بها التمييز بين الخير والشر.
- والآلة التي يقتنص بها العلم وتحصل المعرفة.
- والميزان الذي يميز به بين صحيح العلم من سقيمه.
- والمرآة التي يعرف بها الحسن من القبيح في مجل القيم لا في

---

(١) صحيح البخاري، ح (71).

(٢) أصول الشاشي ص (291).

(٣) دراسات في النظام الخلقي ص (52-53).

تفاصيلها.

-كما أنه شرط في معرفة العلوم وكمال الأعمال وصلاحها، حيث يقول الإمام الشافعي " هو آلة التمييز".

ويقول ابن القيم في مفتاح دار السعادة :

" غاية العقل أن يدرك بالإجمال حسن ما أتى الشرع بتفضيله أو قبحه فيدركه العقل جملةً ويأتي الشرع بتفصيله، وهذا كما أن العقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلاً أو ظلماً فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل وعقد"(١).

ولما كان العقل بهذا المنزلة عدّ الشارع الحكيم القياس مصدراً من مصادر التشريع، والقياس إنما هو عمل عقلي منضبط بضوابط الشرع.

و مما يبرهن على اعتداد الإسلام بالعقل، وأنه معيار يمكن الاعتماد عليه في التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبح قوله تعالى:

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[ص:28]. يقول ابن القيم :

"وهذا استفهام إنكار، فدل على أن هذا قبيح في نفسه، منكر تنكره العقول والفطر، فلا يليق بنا فعله، فأنكره سبحانه إنكار منبه للعقل والفطر على قبحه وأنه لا يليق نسبته إليه"(٢).

وكذا في حديث معاذ بن جبل الشهير في بعثه لليمن وفي آخره قال :

اجتهد رأيي لا ألو ! بعد كتاب الله وسنة رسوله .

ومما يؤكد قدرة العقل على إدراك أصول الأخلاق اتفاق الناس على اختلاف بيئاتهم على استحسان الصدق والعدل والإحسان ونحوها، وعلى النفور من الكذب والظلم والإساءة؛ لأن هذا أصلاً في الفطرة الإنسانية،

---

(١) ص(120).

(٢) مدارج السالكين (1/186).

وهي مشتركة بين الناس جميعاً[1].

ولكن مع كل هذه المكانة للعقل إلا أنه عاجز عن وضع منهج تام للفضيلة الخلقية يرتقي بالإنسان في سلم الكمال، ويحقق له الطمأنينة بمعزل عن هداية الوحي وتوجيهه[2].

فهو معيار مهم ، لكنه غير مستقل !

لأن العقل محدود في إدراكه ، والإنسان معرض للخطأ والنسيان والهوى أيضاً، وغيرها من المؤثرات التي تسهم في حدوث القصور للعقل.

ومما يجب الإشارة إليه أن بعض الباحثين يضع " القياس" بدل العقل هنا كمصدر من مصادر القيم، ولا بأس أن نعرض للقياس بشيء من الحديث المختصر .

فالقياس في الاصطلاح :

" هو إلحاق فرع بأصل لعلةٍ جامعة بينهما"، فعمل القياس هو افتراض وجود حالة نقيس عليها، تشارك الحالة الجديدة في علة الحكم، وعلى ذلك فالحالة الأصلية ينبغي أن يكون قد سبق ذكرها في القرآن أو السنة أو الإجماع .

وللقياس حجيته المعتبرة، وقد ذكرنا أدلته فيما سبق!

وبعض الباحثين يضع الفطرة كأحد المصادر أو المعايير وهو مصدر معتبر في الشرع ، وقد يشهد له حديث الأشج بن عبد قيس، وقد قال فيه النبي : " إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة" ، وفي رواية " يارسول الله أنا أتخلق بهما أم جبلني الله عليهما؟ قال: " بل جبلك الله عليهما" ، قال الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله"[3].

وكذا وضع بعضهم الضمير الأخلاقي وغيرها من المصادر المعتبرة، ولكنها

---

(١) انظر : ابن تيمية، الرد على المنطقيين ص (435).

(٢) دراسات في النظام الخلقي ص (56)، والسلفية وقضايا العصر (537-538).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله.. حديث رقم (17).

مصادر معرضة للتغيير والتبديل والتأثر، فهي مصادر غير مستقلة ، كالكتاب والسنة والإجماع..!!

بسم الله الرحمن الرحيم

❖المبحث الثالث : خصائص القيم الإسلامية

- **مدخل في تعريف الخصائص**

الخصائص : جمع خصيصة، من خصَّ يخصُ خصاً.
وخصصه واختصه : أي أفرده به دون غيره، وتخصص له : إذا انفرد[١].

والخاص : عبارة عن التفرد، يقال : فلان خص بكذا، أي أفرد به، ولا شركة للغير به[٢].
وسيكون الحديث في هذا المبحث عن خصائص القيم الإسلامية التي تميزها وتحدد معالمها ووجهتها.
تمتاز القيم الإسلامية في النظام الأخلاقي في الإسلام عما سواها في النظم الأخلاقية الأخرى بالعديد من المزايا والخصائص.
وهذه الخصائص والمزايا هي خصائص للشريعة كما سنرى ، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الأخلاق الإسلامية، وما يتصل بها من أحكام إنما هي جزء لا يتجزأ من الشريعة الإسلامية التي شملت كل مناحي الحياة الإنسانية.
فالقيم الإسلامية تندرج تحت أصول الإسلام الكلية، وتخصصيها بالدراسة في النظام الأخلاقي من أجل منح القارئ تصور جيد حول هذه المسألة من مسائل التشريع الإسلامي[٣].

---

(١) لسان العرب، والقاموس المحيط: باب الصاد، فصل الخاء.
(٢) التعريفات للجرجاني ص 133.
(٣) انظر : د. مفرح القوسي، دراسات في النظام الخلقي ص (87).

وخصائص القيم الإسلامية كثيرة، لعل من أبرزها ما يلي :

- **الخاصية الأولى :الربانية**

والربانية كما في المعجم العربي هي مصدر صناعي منسوب إلى الرب، زيدت فيه الألف والنون على غير قياس للمبالغة في النسب، ومعناه: الانتساب إلى الرب[1].

والمقصود بالربانية هنا أمرين :

ربانية المصدر، وربانية الوجهة : أي أن القيم الإسلامية مصدرها رباني لا بشري ؛ لأنها تؤخذ من الوحي الإلهي -كتاباًوسنةً- وتصطبغ بأوامره و نواهيه. ،**فالله سبحانه وتعالى يقول عن هذا المصدر** ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِين﴾[الواقعة:80].وهذه الخصيصة من أعظم مزايا القيم الإسلامية وخصائصها على الإطلاق؛لأن الوحي الإلهي هو الذي وضع أصولها ، وحدد أساليبها، التي لا بدّ منها لبيان معالم القيم الإسلامية، حتى بدت متكاملة ومتماسكة، متميزة عن غيرها في مخبرها ومظهرها، فهي بكل خصائصها ومقوماتها مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ، فالواجب على الإنسان أن يتكيف معها، ويطبقها في حياته؛ وذلك لأنها توجه حركة الإنسان إلى خالقه، وتحيل الأهداف الدنيا إلى وسائل لتحقيق الغاية العظمى بأن يكون الإنسان عبداً خالصاً لله تعالى، لهذا كانت العبودية من قيم الإسلام العليا، هي روح الإسلام وجوهره وهو التوحيد[2].

وربانية الوجهة -كما سبق وذكرنا- بأن الالتزام بهذه القيم الإسلامية هو عملية وصال بين الإنسان وربه سبحانه وتعالى ، كي يعرفوه حق معرفته، ويتقوه حق تقاته، ويحققوا ما خلقوا لأجله وهو عبادته وحده لا شريك ،

---

(١) انظر : ابن منظور ، لسان العرب مادة(ربب).

(٢) انظر : د.مانع المانع، القيم بين الإسلام والغرب ص (152).

كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون﴾[الذاريات:56][1].

وهذه الخاصية ، وهي بأن تكون القيم الإسلامية ربانية المصدر جعلت القيم قادرة -بحول الله وعونه- أن تخرج الإنسان من عبودية الهوى والشهوات ، وتأخذه بعيداً إلى أفق أعلى، أفق الإنسانية المتحررة التي تتصرف بوعيها وإرادتها ، لا بوحي شهوتها وغرائزها الحيوانية[2].

ثم إن الاضطراب في مصدرية القيم يؤدي إلى اضطراب فكر الإنسان وفي تصوراته للأشياء وفي نفسيته، وهذا ما يؤثر انقباضاً في إحساس الفرد، أو اندفاعاً لا يحده ضابط، ولا تقيده قيمة، مما يزيد المسلم شعوراً بنعمة الله التي وهبها إياه، والتي منها القيم التي هي مصدر كل خير، وهي جديرة بأن تبرز وتسود، وذلك تلطفاً ورحمة منه سبحانه وتعالى بعباده، وعلى أساس هذه الخاصية تقوم الخصائص الأخرى.

ويترتب على أن القيم من عند الله تعالى عدة اعتبارات ، من أهمها ما يلي :

1- **أن القيم تتسم بالعدل** : وذلك أن أحكام الشريعة الإسلامية بكل ما تحويه من قيم ومبادئ تتسم بالعدل والقسطاس ، وتخلو من النقص والجور والهوى، والعدل في الإسلام عدل مطلق في كل شيء ، في القول ووفي العمل وفي النظر وفي الأشياء وفي الحكم عليها وغير ذلك، **والناس في الإسلام لا تمايز بينهم ، فلا فرق بين عربي ولا أعجمي، ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، فالكتاب والسنة حافلان بالحث على العدل والإنصاف والأمر به ، ونصوص أخرى كثيرة تحرم الظلم وتنفر منه**، قال تعالى ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء: 58]، وقال تعالى ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِين﴾[المائدة:42].

---

(١) انظر : د.مفرح القوسى : دراسات في النظام الخلقي ص (88).

(٢) انظر : د.مانع المانع : القيم بين الإسلام والغرب ص (152-153).

وقال حكاية عن ربه في الحديث القدسي " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا"[1].

2- **أن القيم تتصف بالقدسية** : فالقيم الإسلامية تُحترم وتطاع طاعةً اختيارية تنبع من ذات الفرد؛ لأنها تقوم على الإيمان، فكلما زاد إيمان المرء عمقاً ورسوخاً زادت أخلاقه، وزاد التزامه بقيمه.

3- **أن القيم تنال ثقة المسلم** : إذا علم الإنسان بأن القيم الإسلامية مستمدة من كتاب الله فإن ذلك يؤدي- حتماً- إلى شعور عميق بالثقة التامة بتلك القيم ؛ذلك أن هذا الكتاب محل ثقة الناس؛لأنه مبرأ من كل نقص أو هوى قد يصاحب العمل الإنساني أو يؤثر في الفكر البشري، وبناء على ذلك فإن القيم الإسلامية في منأى عن المصالح الشخصية، كما أنها لا تخدم مصالح الأقوياء دون غيرهم كما هو الحال في القيم اليونانية القديمة، ثم إن هذه النزعة الفطرية المتولدة عن الشعور بالثقة التامة بتلك القيم تدفع المرء إلى الاستقامة وحسن الخلق، وهي نزعة لا تحتاج إلى محرك خارجي أو رقابة خارجية؛إذ السلطان على الإنسان حينئذ هو الاعتقاد الذي يحمله بين جنبيه، كما أن الثقة التامة بين الإنسان وما يجب عليه فعله؛ حب صادق له ورغبة قوية وحرص تام عليه وسعادة غامرة في أدائه، وهي الأساس في تماسك المجتمع بالقيم وتعاون أفراده على أساسها[2].

4- **أن القيم تكتسب من الشريعة صفة الخلود والحفظ والصلاح**:

تكتسب القيم الإسلامية خاصية الخلود والحفظ والوضوح من الشريعة لإسلامية؛ لأن الإسلام هو الدين الباقي وهو وحده الدين المحفوظ في أصله، فكل الكتب السماوية دخلها التحريف والتبديل، وكل سير الأنبياء السابقين وأقوالهم غير محفوظة بالضبط.

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري رقم (1838).

(٢) انظر : د.مانع المانع ، القيم بين الإسلام والغرب ص (154) بتصرف يسير.

أما الإسلام فقد حُفظ كتابه الكريم من كل ذلك، فهو منذ نزل على رسولنا إلى يومنا هذا وإلى قيام الساعة محفوظ بحفظ الله له، كما قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحِجر: 9]، وكتاب الله يدعو إلى التمسك بالقيم في آيات كثيرة، وكذلك سيرة الرسول فإن نصوصها واضحة جلية في دعوتها إلى القيم وضرورة التخلق بها، ومن أشهر أقواله الذي ربط بين الأخلاق وبثته بقوله " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" [1].

وهذه الخاصية كان لها نتائج عظيمة في قوة هذه القيم ووضوحها وأثرها الفعال في المجتمعات الإسلامية.

5-أن القيم ترتبط بالجزاء الدنيوي والأخروي :

إن غاية القيم في الإسلام هي الحصول على مرضاة الله تعالى، وهو منتهى الآمال، وهو ما يسعى إليه ويكدح المسلم من أجله في حياته، كما أن مقصود تلك القيم الإسلامية هي تنظيم حياة الناس واستقامتهم على شرع الله المطهر؛ فلذا كان الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب من الله تعالى كي يلتزم المسلم بشرائع الإسلام وقيمه، وما يُرتب على ذلك من جزاء في الدنيا أو الآخرة، بينما الجزاء في القوانين الوضعية فهو دنيوي فقط، ويرجع ذلك إلى أن القيم الإسلامية شاملة لجميع شؤون الإنسان الخاصة والعامة.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (273) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

▪ الخاصية الثانية : الشمول

إن دائرة الأخلاق في الإسلام يتسع نطاقها، فيدخل فيه كل سلوك إرادي صادر من إنسان راشد، وليس السلوك مجرد الفعل الظاهر ، بل يمتد إلى عمل القلب-أي الاعتقاد- فيندرج تحت السلوك بمفهومه العام، ويترتب عليه المسؤولية والجزاء، كما تترتب المسؤولية والجزاء على الفعل الظاهر[1].

والقيم في الإسلام أيضاً لم تدع جانباً من جوانب الإنسانية بمختلف مجالاتها روحية أو جسدية، دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو اجتماعية، إلا رسمت له الطريق الأمثل للسلوك الرفيع.

فمنها ما يتعلق بالفرد، جسداً له ضروراته وحاجاته، وعقلاً له مواهبه وآفاقه، ونفساً لها مشاعرها ودوافعها وأشواقها.

ومنها ما يتعلق بالأسرة كالعلاقة بين الزوجين، والعلاقة بين الأبوين والأولاد، والعلاقة بين الأقارب والأرحام.

ومنها ما يتعلق بالمجتمع في آدابه، وفي اقتصاده ومعاملاته، وفي سياسته وحكمه.

ومنها ما يتعلق بغير العقلاء من الحيوان والطير، ومنها ما يتعلق بالكون الكبير.

وقبل ذلك كله وأرفع منها شأنا ما يتعلق بالخالق العظيم سبحانه وتعالى الذي منه كل النعم، وله كل الحمد؛ وبهذا يتجلى لنا شمول القيم الإسلامية ، من حيث موضوعها ومحتواها.

ومن ذلك الشمول الذي يجعل للقيم منهجاً كاملاً يشمل جميع مظاهر النشاط الحيوي للفرد والمجتمع، وجميع علاقات الإنسان وكافة جوانب حياته.

ومن شمول القيم دخولها في كل الجوانب الإنسانية، فلكل جانب من جوانب

---

(١) انظر:د.مفرح القوسي، دراسات في النظام الخلقي ص(94).

الإنسانية المختلفة الداخلية والخارجية قيم.
للفكر قيم، وللاعتقاد قيم، وللقلب قيم، وللنفس قيم، وللسلوك الظاهر قيم.
فمن قيم الفكر تحري الحقيقة بإنصاف وتجرد وحياد، والصبر على التفكير والتدبر، والبحث عن كل نافع ومفيد من الأفكار والمعارف والعلوم، والبعد عن سفاسف الأفكار وتوافهها، وترك النقائص والرذائل التي ينبغي على الإنسان أن يجتنبها ؛ليتميز بالارتقاء في سلم القيم الإسلامية الرفيعة.
ومن قيم الاعتقاد أن لا يسمح الإنسان لنفسه بتتبع الأوهام والظنون الضعيفة ليجعلها في معتقداته الثابتة، وأن لا يجعل معتقداته فريسة للتقليد الأعمى والضلالات الرائجة، أو فريسة لما تمليه الأهواء والشهوات من أفكار ومذاهب.ومن قيم القلب حب الحق وحب الخير، وكراهية الباطل والشر، وعدم حمل الأحقاد والضغائن.
ومن قيم النفس الصبر والعفة، ومجانبة الحسد، والترفع عن سفاسف الأمور، والنظر إلى معاليها، وعلو الهمة، وجود النفس وتسامحها، والعفو عن المسيء ..الخ.
و قيم السلوك كثيرة وهي تعبير عن عما في داخل المرء من قيم، ويقابلها نقائص ورذائل يُطالب لإنسان باجتنابها والبعد عنها.
وبهذا يتبين شمول القيم لكل جوانب الإنسانية المختلفة، وصفة الشمول جعلت القيم ذات امتداد أفقي واسع، يشمل التصور الاعتقادي، والمنهج التشريعي، والسلوك الاجتماعي ، بطريقة متوازنة، تتناسب مع حاجة الإنسان وطبيعة الحياة، وهذا بدوه يخلق مجتمعاً متسع الآفاق، طموح التطلع نحو المستقبل[1].

- **الخاصية الثالثة : العالمية- العموم**

---

(١) انظر: د.مانع المانع، القيم بين الإسلام والغرب ص(156-157).

ليست القيم الإسلامية مقتصرة على بعض الأفراد دون آخرين، أو في زمن دون زمن، ولا هي مرتبطة بأشخاص مثاليين يرقى الواحد منهم بنفسه وروحه ليكون في عداد الأخيار الأطهار القلائل، بل هي في حقيقتها مقدور عليها وميسورة يمارسها الإنسان في سهولة وفي رغبة ذاتية نشطة، وهي بذلك تتصف بالعموم الذي يتحقق في الأمة كلها أفراداً وجماعات في جميع الأوضاع والأحوال، وفي مختلف الأماكن والأزمان بغير تفريقٍ أو تمييز.

ومن عموم القيم الإسلامية أنها تشمل العربي والأعجمي، وتعاليمها الخلقية شملت تعامل الإنسان مع الإنسان، والإنسان مع الحيوان، مع التدرج في التربية من الحس إلى العقل في ضوء رحمته وعفوه سبحانه وتعالى، ومن ثم فالشرع الإسلامي عام في توجهاته للمخاطبين به، متدرج في أحكامه، قال تعالى﴿و وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل:89]، وقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:107]، وخطابه سبحانه وتعالى عام؛ لأنه الخالق والعالم بمن خلق.والقيم في الإسلام تنظر إلى العرب والعجم على حد سواء، بل المسلون وغيرهم أمام قيمها سواء، الربا حرام بين المسلمين، وبين المسلم والكافر، والسرقة حرام بين المسلمين وبين المسلم والكافر، والزنا محرم بالمسلمة وغيرا لمسلمة، والعدل واجب تجاه المسلم وغير المسلم، والعدوان حرام على الجميع، كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة:8].

وبهذا تميزت القيم الإسلامية بالبعد عن النزعة العنصرية والقومية التي اتسمت

بها الأخلاق اليهودية والأخلاق الجاهلية القبلية[1].

▪ الخاصية الرابعة : الفطرية

وتمتاز القيم الإسلامية بموافقتها للفطرة الإنسانية التي استودعها الله عز وجل في النفس البشرية، والتي قال سبحانه وتعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[الروم: 30]، وقال عنها الرسول " كل مولود يولد على الفطرة.."[2].

فالنفوس مجبولة على محبة القيم الفاضلة واستحسانها، حتى لو لم تقم بها أو عجزت عن تحصيلها، فلم يزل الناس يثنون على الكريم والشجاع والصادق والأمين ونحو ذلك، وإن تخلفوا عن القيام بهذه الفضائل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " الإنسان من نفسه يجد من لذة العدل والصدق والعلم والإحسان، والسرور بذلك ما لم يجده من الظلم والكذب والجهل، والناس الذين وصل إليهم ذلك ، والذين لم يصل إليهم ذلك يجدون من أنفسهم من اللذة والفرح والسرور بعدل العادل وصدق الصادق وعلم العالم وإحسان المحسن مالا يجدونه في الكذب والظلم والجهل والإساءة، ولهذا يجدون في أنفسهم محبة لمن فعل ذلك وثناء عليه ودعاء له، وهم مفطورون على محبة ذلك واللذة به، لا يمكنهم دفع ذلك عن أنفسهم، كما فطروا على وجود اللذة بالأكل والشرب، والألم بالجوع والعطش"[3].

ومن مظاهر موافقة قيم الإسلام الخلقية للفطرة السليمة :

---

(١) المرجع السابق : ص 157-158) بتصرف يسير

(٢) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز، الباب (92).

(٣) الرد على المنطقيين ص (423).

عدم مصادرتها لنوازع النفس ودوافع السلوك فيها، فمن المعلوم أن النفوس جبلت على كثير من النزاعات والغرائز ذات التأثير الكبير في الأخلاق والسلوك، كالمحبة والكراهية، والغضب والرضا.. فلم يأتِ الإسلام بمصادمة هذه الغرائز وإلغائها في كل حالاتها، بل جاء بتهذيبها من جهة وتوجيهها من جهة أخرى.

فالغضب والغلظة والشدة- مثلاً- ليست ممقوتة في كل حال، بل هي مأمور بها في مواطنها الصحيحة، فالغضب لله ولرسوله و لما جاء به من الحق أمر مطلوب، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : " ما ضرب رسول شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن تُنتهك شيء من محارم الله تعالى فينتقم لله عز وجل"(١).

والغلظة على الكفار والمنافقين متعينة، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[التوبة:73].

كما أن غريزة الشهوة جعل الإسلام لها مصرفاً مناسباً، وهو وضعها في الموضع الحلال عن طريق النكاح المباح.

ونزعة الحسد جعل الإسلام لها مصرفاً وهو المنافسة في فعل الخير والغبطة عليه والمسابقة فيه.

كما جعل الإسلام لنزعة حب الجاه مصرفاً وهو استعمالها في تنفيذ أوامر الله وإقامة دينه ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف، فالرئاسة في هذه الوجه عبادة عظيمة، وهكذا بقية النزعات والغرائز التي ركبها الله في الإنسان لمصالح اقتضتها حكمته سبحانه وتعالى لا تعطل في النظام الخلقي في الإسلام ولا تكبت وإنما تصرف في مصارفها اللائقة بها(٢).

ولعل من أهم مظاهر فطرية الأخلاق في الإسلام واقعية ما شرعه الله

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل (84/15).

(٢) انظر : د.مفرح القوسي، دراسات في النظام الخلقي ص (104-107).

عز وجل من قيم خلقية لعباده وإمكانية تمثلها وتطبيقها، وبعدها عن المثاليات الخيالية- التي دعا إليها العديد ممن عني بدراسة الأخلاق من الفلاسفة الغربيين ،قديماً وحديثاً- مثل أخلاق الدولة في جمهورية أفلاطون، ومذهب الواجب الأخلاقي عند كانط!

وكذا مراعاة قدرات المكلفين وأحوالهم، فقد اقتضت رحمة الله تعالى بعباده ألا يحملهم من التكاليف ما لا يطيقونه، وما لا يشق عليهم القيام به..

ومن أمثلة الواقعية في تشريعات الإسلام الخلقية أن الإسلام لم يوجب على المرء محبة عدوه، ولا مودة ظالمه، فذلك أمر ليس في طاقة كثير من الناس، وقد راعى الإسلام التفاوت الذي نجده في تصرفات الناس، فحذر من الظلم ابتداء أو مجاوزة الحد عند استيفاء الحق، وأجاز لمن ظُلم الانتصار لنفسه ممن ظلمه بقدر مظلمته دون تجاوز أو بغي أو تعدٍ، وفتح بعد ذلك باب العفو والتسامي عن الانفعالات الثائرة والأحاسيس الهائجة، فرغبهم في العفو والصفح ترغيباً في ثواب الله وواسع فضله، حيث يقول سبحانه وتعالى﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِين﴾[الشورى:40]، ويقول أيضاً سبحانه وتعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِين﴾[النحل:126].

▪ الخاصية الخامسة : الوسطية

يتميز الدين الإسلامي، الذي جعله الله آخر الأديان وارتضاه للبشرية كلها بأنه دين وسط في العقيدة والشريعة والأخلاق، فهو يقف دائماً بين الإفراط والتفريط، لا يقبل التنطع ولا الرهبانية كما يأبى التساهل والتهاون.

يفي هذا الدين الخاتم بحاجات الروح والجسد والعقل في آن واحد، قال الله تعالى في كتابه الكريم ﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة:143].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمة وسطاً أي خياراً عدولاً.

ومما يجب اعتماده والقول به " إن التوسط والاعتدال من الأمور التي يُتوصل بها إلى معرفة القدر المحمود من الفضيلة الخلقية"(١)

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : " وكلا طرفي الأمور ذميم، وخير الأمور أوسطها، والأخلاق الفاضلة كلها وسط بين طرفي إفراط وتفريط، وكذلك الدين المستقيم وسط بين انحرافين".

ويدل على هذا ما جاء في القرآن الكريم من التوجيه على التوسط والاعتدال، والثناء على من لزم ذلك، كما قال تعالى ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء:29]، وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان:67].

وهذا التوسط والاعتدال المحمود إنما هو في الأفعال التي في واقع الأمر لها طرفان مذمومان، وبالتالي المقرر فيها شرعاً في مثل هذه الحالة الأخذ بالوسط الفاضل بينهما.

---

(١) الأخلاق بين المدرستين السلفية والفلسفية(مسكويه وابن القيم نموذجاً) ص (206).

ولكن هل كل الفضائل لها طرفان مذمومان كما يقرره ابن مسكويه وابن القيم؟

الواقع أن الأمر ليس كذلك، فليست كل الفضائل أوساطاً بين أطراف مذمومة، فالصدق مثلاً ليس له هذان الطرفان المذمومان، بل له ضد واحد وهو الكذب، وكذا الإيثار فإنه تخصيص الغير بما تريده لنفسك فهو أحد طرفي العدل.

وعلى هذا فإن التأكيد على مبدأ الوسطية وجعلها صفة ثابتة لكل فضيلة خلقية أمر غير صحيح وغير مسلم به، بل لا يعله لا يستقيم في عدد من الفضائل.

ثمة مخرج للقائلين بهذا القول بأن قالوا بأن الوسط الفاضل يختلف باختلاف الناس[1].

وهذا القول ليس على إطلاقه؛ لأن من الفضائل ما هو مرتبط بأحوال الإنسان وقدراته، ومنها ما ليس له صلة بذلك أصلاً!

ولنفصل قليلاً بذكر هاتين الحالتين :

- فمن الفضائل الوثيقة الاتصال بالإنسان وقدراته (الإنفاق في سبله الواجبة والمستحبة) فإن المقرر فيها والواجب إن الإنسان ينفق بحسب طاقته ووسعه، كما قال تعالى ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[الطلاق:7].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى " العرف هو المحدد لمقدار الواجب في نفقة الزوج على زوجته عند جمهور العلماء، وهذا مختلف باختلاف أحوال البلاد والأزمنة وحال الزوجين"[2].

---

(١) تهذيب الأخلاق (46).

(٢) مجموع الفتاوى (34/83).

- أما الفضائل التي لا صلة لها بذلك، فمنها الصدق، والوفاء بالوعد، والأمانة، فهذه لا تختلف باختلاف الناس، بل هي فضيلة بدرجة واحدة مع كل أحد.

والصحيح هو استخدام الوسط معياراً في الأخلاق أو الفضائل التي لها طرفان مذمومان، وما هو مختلف عن تلك الصفة فإن المعيار اللائق به هو معيار العدل، فالعدل ضابط لا بد من مراعاته للوصل إلى الوسط المحمود، فالوسط الفاضل ليس وسطاً رياضياً، بل هو إضافي المقصود منه الوقوف مع الحق والعدل دون إفراط أو تفريط، وهذا هو مدلول هذه اللفظة في اللغة[1].

والوسطية في القيم الإسلامية لم تلغ الطبيعة البشرية، بل عملت وتعمل على توجيهها باعتبارها مفاهيم ضابطة، تعمل على توجيه هذه الطبيعة، فهي لا تعاكس الفطرة ولا تلغيها ولا تكبتها ولا تقف في طريقها، بل تحاول أن توجهها بطريقة دافعة، ومن منطلق هذه الوسطية يلزم الإنسان بالقيم المحققة لإنسانيته، والتي لا تغلو في طرف وتهمل في طرف آخر، فالإنسان مطالب بالتوسط في الإنفاق، والعاطفة، والاعتقاد، وتوفية مطالب الروح والجسد.

إن تلك الوسطية التي تتميز بها القيم الإسلامية تعد عملية انتقائية، إلا أنها توفيق دقيق جداً بين الوحي وإمكانات الإنسان الأرضية، وهذا ضروري؛ لأنه يجعل للإنسان حيوية الاختيار والانتقاء للالتزام بها، مما يتيح في النهاية عملاً يتصف بالصدق في المظهر والمخبر.

---

(١) انظر : ابن منظور، لسان العرب مادة (وسط).

▪ الخاصية السادسة : الواقعية واليسر

يعرف الفلاسفة الواقعية برؤية الأشياء كما هي عليه في الواقع، والتعامل معها بما يناسبها.

ويقصدون به الإحساس بالواقع والتقيد به، والنظر إليه على أنه المثل الأعلى والغاية الأسمى[1].

ونتيجة لهذه الفلسفة الوضعية في دراستها للأخلاق اتجاهاً واقعياً بهذا المعنى، بحيث تكتفي بتفسير الواقع والالتزام به، منطلقة في هذا من نظرتها للأخلاق ومثلها العليا حيث تعتبرها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي ينتجها الاجتماع البشري.

ولكن هناك نظرة أخرى للواقعية-وهي ما نقصده هنا-ومضمونها مراعاة الفطرة الإنسانية وقدراتها ومواهبها، وملاحظة ما يحيط بالإنسان من ظروف وأوضاع وملابسات[2].

والواقعية بهذا المعنى شرط مهم في أي تشريع يراد له السمو بالإنسان واستثمار طاقاته وتوجيهه إلى سبيل الخير وطريق الاستقامة.

فالقيم الإسلامية تتميز بالواقعية، فهي ليست ضرباً من المثاليات ولا هي من قبيل الخيالات التي تعلو على الواقع، وبالتالي لا يمكن تطبيقها في الحياة.

وإنما القيم ممارسات راقية تتحقق قي واقع البشر بالفعل؛ لأنه تتوافق تماماً مع هذا الواقع وتتناسب مع طبيعة الإنسان.

ومن شواهد هذه الواقعية أن الإسلام حرم موالاة الكافرين ومحبتهم، ولكنه أباح الإحسان والبر إليهم ما لم يكونوا محاربين، ولا سيما الأقارب منهم وخصوصاً الوالدين.

---

(١) المعجم الفلسفي (2/552).

(٢) انظر : د.عبد الله العمرو، الأخلاق بين المدرستين السلفية والفلسفية ص(211).

■ الخاصية السابعة : الثبات والمرونة

" وهناك قيم عليا ثابتة لا تقبل الاجتهاد أو التغيير أو التبديل؛ كالقيم الاعتقادية، وقيم العبادات، وقيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما القيم الأخرى ففيها مرونة بمعنى آخر :

إن القيم التي تستند إلى نص قطعي الدلالة لا يجوز فيها التغيير والتبديل، أما تلك التي تعتمد على نص ظني الدلالة فإن مجال الاختيار فيها واسع، وهي مرونة كافية لمواجهة ما يتولد في حياة الإنسان من مواقف وحوادث..فالقيم والقواعد القطعية الواجبة لا يجوز فيها التبديل، أما ما يستحدث من مواقف وما يحوز فيه الاجتهاد ويستجد من قيم بحسب اقتضاء المصلحة زماناً ومكاناً وحالاً فتلحقها الحركة والمرونة"[1].

إن القيم الإسلامية تسير وفق ضوابط حددها الشرع المطهر، وتعبد الله الإنسان بها تضمن له التجرد من الأهواء والشهوات والبعد عن كل ما يهوى به إلى الدركات السفلى من الخطايا والمنكرات، ملتزم بقواعد وضوابط ثابتة(تمثل حقائق منطقية) وحياً وفطرةً في كل أفراد مسائلها وقضاياها.

وقد تميزت القيم الإسلامية بالجمع بين الثبات والمرونة في تناسق مبدع، ويوضع كل منهما في موضعه الصحيح الثابت فيما يجب أن يخلد ويثبت، والمرونة فيما ينبغي أن يتغير ويتطور، وبهذا يتبين لنا ثبات القيم الإسلامية ومرونتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان، واهتمامها بالإنسان ومراعاتها لظروفه.

---

(١) علي أبو العينين، القيم الإسلامية والتربوية ص(69).

والمقصود بالثبات في القيم هو استمرار الفضيلة الأخلاقية مستحسنة، والتسليم بها مثالاً للسلوك المحمود، فالصدق في المعاملة وأداء الأمانة والوفاء بالعهد.. كلها فضائل ثابتة ومستقرة ومحمودة في كل زمان مع كل أحد لما لها من الآثار الحميدة.

والأصل في هذه الخصيصة كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

إن الأفعال لها صفات ذاتية حسنة وقبيحة، أي أن منشئة للمصلحة والمفسدة ومقتضية لها بذاتها؛ ولذا فهي سالمة من التقلب والاختلاف بحسب الأهواء والمصالح الذاتية.

وخصيصة الثبات في القيم الإسلامية من أبرز الخصائص وأهمها؛ لأن القول بثبات القيم يجعل طريق الإنسان واضحاً لا لبس فيه، مستقيماً لا عوج فيه.

كما أنه يعني أن هناك مثلاً عليا وأخلاقاً رفيعة ينبغي أن ينطلق منها الفرد، ويسمو إليها المجتمع.

وهو بعد هذا يضمن وجود مبادئ مستقرة يحكم بها على سلوك الأفراد والمجتمعات.

وبغياب هذه الخصيصة يرتد المعيار للحكم على الأفعال بالحسن والقبح إلى اللذة والمنفعة .. وإلى الأهواء والمصالح العاجلة مما يعني عدم استقرار الفضيلة الأخلاقية، فما هو خير اليوم قد يكون شراً في الغد والعكس صحيح!

وإذا كانت الشريعة قد جاءت بالإذن في الكذب في بعض المواضع كما في الحديث الصحيح " لا يصلح الكذب إلا في ثلاث : يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس".

فإن هذا الحديث لا يقدح في ثبات القيم الخلقية في الإسلام؛ لأن هذه المواضع التي يسوغ فيها الكذب مواضع مضبوطة حيث المصلحة راجحة وظاهرة، من اليسير إدراكها بالعقول السليمة والفطر السوية، وهذا شرط مهم فيها.

▪ الخاصية الثامنة : إثبات الجزاء

ومن خصائص القيم في الإسلام إثبات الجزاء؛ لأن الإسلام جاء بالأخلاق أمراً ونهياً، وعصيان أوامر الشرع أو ارتكات ما نهى عنه سبب للعقاب، كما أن العمل بها سبب للثواب.

والجزاء الإلهي يكون في الدنيا والآخرة ، ويقصد بالجزاء الإلهي ما قدره الله من ثواب أو عقاب في الدنيا على عبده المكلف مقابل ما قام به من عمل حسن أو قبيح ، ويتمثل في ثلاثة أمور هي :

1- النعم والمصائب الدنيوية

ومن شواهد الجزاء في جانب الثواب ما يلي :

- محبة الله لعبده المحسن والصابر والمقسط، ومعية الله له بالتأييد والمعونة، قال تعالى ﴿وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين﴾[البقرة:195]، وقال تعالى ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِين﴾[آل عمران:146]،وقال تعالى ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِين﴾[المائدة:42].
- الحياة الطيبة في الحياة الدنيا، قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون﴾[النحل:97].
- سعة الرزق وبركة العمر وعمارة الديار ثواباً لمن وصل رحمه وحسن خلقه وأحسن الجوار ، قال " من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه" [(١)]، وقال أيضاً " صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان الأعمار"[(٢)].

---

(١) البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب.

(٢)أخرجه أحمد في المسند(6/159). قال ابن حجر رجاله ثقات

ومن شواهد الجزاء في جانب العقاب ما يلي :

- خسران العبد المسيء محبة الله له ، قال تعالى ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة:190].
- هلاك الأمم من آثار المعاصي والآثام ، قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِين﴾[الأنعام:6].
- مصائب الدنيا من هموم وأمراض وأحزان ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِير﴾[الشورى:30].
- هداية الكاذب إلى الفجور- نسأل الله السلامة- قال " إن الكذب يهدي إلى الفجور"[1].

2- القصاص والحدود

ويقصد بها العقوبات المحددة شرعاً التي اوجب الله نفاذها بحق مرتكبيها، وهي ما يلي :

- عقوبة القتل وشبه القتل.
- عقوبة الزنا ، للزاني المحصن وغير المحصن.
- عقوبة القذف.
- عقوبة شرب الخمر.
- عقوبة السرقة.
- عقوبة الإفساد في الأرض (حد الحرابة).
- عقوبة البغي.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب الأدب.

3- **التعازير**

ويقصد بها ما كتبه الله على عبده العاصي شرعاً من عقوبات تفويضية يحددها ولي الأمر أو من يقوم مقامه من النواب على ما يرتكبه الإنسان من معاصٍ ليس فيها حد مقدر.

وتختلف هذه العقوبات وصفاتها بحسب كبر الذنب من صغره، وبحسب حال المذنب، وهذا يعني أن الشريعة الإسلامية أدرجت جميع المعاصي الظاهرة التي لا يقابلها حكم شرعي مقدر، ومنها المعاصي الخلقية تحت طائل هذه العقوبة، مستهدفة منها ردع العاصي والاقتصاص منه، وذلك كالقذف بغير الزنا، والسرقة من غير حرز، والمباشرة المحرمة بلا جماع، والغش في البيع، والرشوة، وشهادة الزور..

- **الخاصية التاسعة : الإيجابية**

والمقصود بالإيجابية إن يتعدى الخير إلى الآخرين، والقيم منفتحة على أبواب الخير، وكون العامل بالقيم والمتمثل بها صالحاً في نفسه لا يكفي بل لا بد أن يكون صالحاً ومصلحاً، ولا يكفي أن يكون خيّراً في نفسه بل يجب أن يوصل الخير إلى الآخرين، بأن يتفاعل مع مجتمعه، وينشر الخير، ويصلح بين الناس، ويعلم الجاهل، ويرشد الضال، ولا ينبغي أن يعتزل المجتمع وينطوي على نفسه.

وتأتي إيجابية القيم الإسلامية من إيجابية الإسلام نفسه، فهو دين إيجابي مؤثر ليس من طبيعته الانكماش والسلبية، وهو يكره العزلة وحجز النفس عن دنيا البشر.

فالقيم الإسلامية تزجي بالنشاطات والممارسات نحو الخير الشامل في حياته وبعد الممات.

وتتبين هذه الحقيقة إذا نظرنا إلى القيم الإسلامية في أصولها وأجزائها للتحقق من أن ذلك كله طريق لدفع الشر والمفسدة بكل صورها وأشكالها، فليس

ثمة تكليف من نهي أو ترغيب أو ترهيب إلا وهو ينطوي على تحقيق مصلحة أو إبعاد مفسدة تحيق بالإنسان.

ومن صور الإيجابية أن القيم لا ترضى من المتحلي بها مسايرة الركب، أو السير مع التيار، بل تحثه على القوة والكفاح وبذل الجهد ومواصلة السير في ثقة وأمل، وتقاوم الكسل والعجز واليأس وكل أسباب الضعف والخور.

ومن صور الإيجابية المساهمة في نفع المجتمع كما شهد لذلك حديث المصطفى " كل سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته فتحمله عليها أو ترفع عليها متاعه"[1].

ومن صور الإيجابية وصية الرسول بالعمل لعمارة الحياة حتى آخر لحظة في زمن الحياة ، قال " إذا قامت الساعة وفي أحدكم فسيلة يريد أن يغرسها فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها"[2].

---

(١) صحيح البخاري ومسلم ، سلسلة الأحاديث الصحيحة(3/23).

(٢) السلسلة الأحاديث الصحيحة (1/38).

بسم الله الرحمن الرحيم

❖ المبحث الرابع : أسس القيم الإسلامية

• مدخل :

-**الأسس لغة** : الأسُّ والأسس والأساس : كل مبتدأ شيء، والأس والأساس هو البناء.

والأساس : أصل كل شيء ، وأسُّ البناء هو مبتدؤه ، يقال : أسس بنيانه أي جعل أسّاً، وهو قاعدته التي يُبنى عليها.

-**الأساس في الاصطلاح** : يختلف المراد به من فن إلى آخر ، فهو عند المعماريين جزء البناء الذي ينقل أحماله إلى الأرض.

والأساس عند الفلاسفة هو مصدر وجود الشيء وعلته؛ فتقول إن عالم المعقولات أساس عالم المحسوسات.

وعند بعضهم : الأساس هو أعم القضايا وأبسط المعاني التي تستنبط منها المعارف[١].

إن من المقومات الأساسية التي لكل نظام أخلاقي وجود سلطة تقوم على تطبيق هذا النظام، وتضمن لمبادئه الفاعلية والقوة المؤثرة في المجتمع، فتأخذ الفرد إلى عمل الخير والاستجابة له، وتبعده عن الشر واجتنابه[٢].

ويتفق علماء الأخلاق على أهمية هذه الأسس الخلقية وضرورتها من أجل بناء القيم الخلقية بناء صحيحاً ، ومن أجل استقامة الحياة الإنسانية، والحفاظ على القيم والمثل الخلقية.

---

(١) القيم بين الإسلام والغرب ص (72).

(٢) انظر :د.مفرح القوسي : دراسات في النظام الخلقي ص(71).

- كما أن الوقوف على أسس القيم والأخلاق والكشف عن أبعادها وتأثيراتها في النفس البشرية في غاية الأهمية؛ لكونه يمنحنا القدرة على رعاية هذه الأسس وتنميتها، وتوجيه ما يحتاج منها إلى توجيه، ليزداد رسوخها، ويعظم أثرها، و تتنامى إمكاناتها في البناء الأخلاقي[1].

- **أسس القيم الإسلامية**

اختلف الباحثون وتعددت وجهات نظرهم حول ما هي أسس القيم في الإسلام؟

- فذهب مقداد يالجن في كتابه " الاتجاه الأخلاقي في الإسلام" إلى أن أسس القيم هي :

أ- الأساس الاعتقادي (الديني).

ب- الأساس الواقعي والعلمي.

ج- مراعاة الطبيعة البشرية.

د- الاعتداد بالحرية.

هـ - تقدير مبدأ الإلزام والالتزام.

و- تأكيد المسؤولية الأخلاقية.

ز- إثبات الجزاء.

- أما في كتابه " التربية الأخلاقية الإسلامية" فقد دمج أساس الطبيعة الإنسانية والحرية والشعور تحت أساس واحد، وهو الأساس الإنساني مع عدم ذكره لمبدأ الإلزام والالتزام.

- أما الدكتور محمد عقله في كتابه " النظام الأخلاقي في الإسلام" فقد سار على التقسيم نفسه الذي خطه الدكتور مقداد يالجن في كتابه " الاتجاه الأخلاقي في الإسلام" غير أنه لم يذكر أساس مراعاة الطبيعة البشرية.

---

(١) انظر : د.عبد الله العمرو، الأخلاق بين المدرستين السلفية والفلسفية ص (169).

-أما الدكتور أحمد عليان في كتابه " التربية الأخلاقية في الإسلام" فقد قصر الأسس على :

أ- الالتزام ب- المسؤولية ج- الجزاء.

-وفي كتاب " الأخلاق بين المدرستين السلفية والفلسفية"لـ عبد الله العمرو فقد وضع الأسس الأخلاقية في ثلاثة أسس :

أ- الأساس الفطري ب- الأساس الحاجي ج- الأساس الإيماني.

وسأضع تقسيماً -أحاول أن يكون جامعاً- لهذه الأسس مع بعض التوضيحات الضرورية من أجل أن يكون التصور لهذه الأسس سليماً ودقيقاً .

1- الأساس الاعتقادي (الديني) :

يُعتبر هذا الأساس هو الأصل الذي تُبنى عليه القيم في الإسلام؛ لأن العقيدة الصحيحة هي أهم ما يطلب من الإنسان؛ لأن العمل إنما يترتب على الاعتقاد، وعلى قدر ما تصح عقيدة المسلم وتقوى تستقيم أعماله وتزكو أخلاقه وقيمه وتسمو همته، ورأس الأمر في ذلك كله هو توحيد الله عز وجل، فلا ينفع الإنسان أعماله الظاهرة، ومراقبته الباطنة من خوف ورجاء وتوكل ونحوها إذا فسد معتقده، يقول العلامة ابن خلدون : إن الإنسان" لا ينفعه إصلاح أعماله الظاهرة و لا الباطنة مع فساد المعتقد الذي هو رأس الأمر" ؛ ولذا فإن هذا الأساس في غاية الأهمية في الاتجاه القيمي في الإسلام؛ لأنه بمثابة الدعامة الأساسية التي يعتمد عليها في إقامة النظام الأخلاقي[1].

---

(١) انظر :د.مانع المانع، القيم بين الإسلام والغرب ص (74).

ومن دون هذا الاعتقاد تفقد القيم قدسيتها وعظم تأثيرها في الإنسان[1]!
و لا يمكن تطبيقها تطبيقاً علمياً دقيقاً في السر والعلن إلا إذا اتخذ هذا الأساس في قلوب البشر مكاناً وآمنوا به إيماناً صادقاً، فهو يلعب أكبر دور في الحياة الإنسانية من حيث إنه أكبر دافع يدفع الإنسان نحو الأعمال الخيّرة الإيجابية، ويردعه عن اتباع الهوى والشهوات.

و من أجل هذه المكانة والأهمية ركز القرآن الكريم على الجانب الإيماني وسعى إلى تعزيزه وترسيخه في النفس البشرية، وذلك من خلال سرد كمٍ هائلٍ من الآيات الكريمة التي تضخ مبادئ الإيمان مباشرة، مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾[النساء:136]، وغيرها من الآيات المشوقة إلى ما يترتب على الإيمان من وعود، مثل قوله تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾[التغابن: 11]، وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُم﴾[محمد:36][2].

وعلى هذا الأساس الاعتقادي ترتكز جميع الأسس الأخلاقية الأخرى، و كما أن الأخلاق لا تقوم في مجتمعٍ بصورة صحيحة إلا بوجود عقيدة آمرة بها؛ كذلك تستند العقيدة في قيامها على الأخلاق، فالعقيدة الإسلامية هي في حقيقة ذاتها حقائق علمية، وهذه الحقائق العلمية منها ما هو متصل بوجود الخالق وبصفاته، ومنها ما يتصل بالأنبياء والرسل، أو متصل بالكتب الإلهية، أو متصل بحقائق من الغيب أخبر الله عنها، والإذعان للحقائق العلمية فضيلة أخلاقية، يدفع إليها أحد الأسس الأخلاقية الجذرية، ألا وهو حب الحق وإيثاره، كما أن جحودها وإنكارها رذيلة أخلاقية، يدفع إليها كراهية الحق،

---

(١) انظر: مقداد يالجن، علم الأخلاق الإسلامية ص (126).

(٢) انظر :عبد الرحمن بن سعد الجهني، الأخلاق بين الثبات والتغير ص (145).

تحت تأثير دافع من دوافع النفس الجاحدة المستنكرة.

و مظاهر ارتباط العقيدة الإسلامية بالقيم والأخلاق متعددة ومتنوعة، فهي تشمل كافة المجالات، ومختلف الأحوال، فهي الأساس الذي ترتكز عليه جميع الأسس التالية، كالأساس الإلزامي أو الجزائي؛ ولذا نجد كثيراً في نصوص الكتاب والسنة تقرن بين العقيدة والقيم الأخلاقية، وتجعل مدار قبول العمل على ما فيه من قيم خلقية، يقول تعالى ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين﴾[آل عمران: 133-134]، وقال الرسول " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

ويقوم هذا الأساس (الأساس الاعتقادي) على ثلاثة أركان :

- الركن الأول : الإيمان بوجود الله الذي خلق كل ما في الكون، وهو بكل شيء عليم، يقول تعالى ﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وكِيل﴾[الأنعام: 102]، وقوله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور﴾[التغابن:4].

وإن للإيمان الصحيح سلطاناً على النفوس، فهو يحملها على كل فضيلة ويدفعها إلى فعل الخير، وبقدر قوته وحياته في القلب يكون انبعاث صاحبه إلى الطاعة وبعده عن المعصية؛ لأن حقيقة الإيمان هي التصديق الجازم والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله به، والانقياد ظاهراً وباطناً[1].

- الركن الثاني: أن الله سبحانه وتعالى منذ خلق الإنسان عرفه نفسه، وعرفه طريق الخير والشر، فمن أصلح نفسه واتبع الهدى فقد فاز ونجا، وإلا خاب وخسر وندم.

---

(١) انظر : د.عبد المقصود خيشة، النظرية الخلقية في الإسلام ص(188).

- الركن الثالث: وجود حياة أخرى بعد الموت، وهذه الحياة إما نعيم لمن صلح واتبع هدى الله، أو جحيم يجازى عليها من اتبع الباطل وفعل الشر.

وأبرز ما يميز هذا الأساس الأهم عدة أمور منها :

1- أن القيم المنبثقة من معتقد صحيح ذات قدسية، وهذا ينتج :

- تعظيم هذه القيم وإجلالها، ومن ثم تكون لها سلطة تتحكم في حياة الإنسان وتصرفاته في السر والعلن.
- تأثير هذه القيم في الإنسان عملياً من الناحية الإيجابية أو السلبية نتيجة تطبيقها أو عدم تطبيقها؛ فيشعر على أثر ذلك بالسرور والانشراح، ويكون الإحساس عند عدم تطبيقها هو الضيق والكآبة.

2- أن القيم في الإسلام من حيث الأصول عامة وثابتة وهي تتجاوز القيم الوضعية من ناحية التأثير والتطبيق (العمل بها).

3- أنها تضع حياة الإنسان بصبغتها وتكيفها بروحها وغايتها، فعقيدة التوحيد هي وحدها القادرة على حسم الأدواء وحل المشكلات، والقضاء على الأزمات؛ فهي تشبع روح الخير والطمأنينة والسلام بين أفراد المجتمع[1].

---

(١) انظر:د.مانع المانع، القيم بين الإسلام والغرب ص (76).

2- الأساس الفطري

إنه لا بدّ لاكتساب الإنسان الأخلاق من وجود الاستعداد الفطري لذلك، وبغياب هذا الاستعداد ينعدم أثر التعليم والتأديب، أما التكاليف الشرعية الملزمة بفضائل الأخلاق واجتناب رذائلها فتكون بذلك أيضاً تكليفاً بما لا سبيل إليه.

ولقد اتفق علماء الأخلاق في الإسلام على وجود الاستعداد في الفطرة الإنسانية لاكتساب الأخلاق، وإن تفاوت الناس في هذا الاستعداد[1].

والفطرة في الأصل هي " الخلقة التي يخلق عليها المولود في بطن أمه"، قال تعالى ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾[الزُّخرُف:27]، أي خلقني .

وقال عز وجل﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[الروم:30].

والفطرة هي الخصائص الجبلية، والطبائع الأصلية في النفس، من قبل أن ترد إليها التربية والتقويم.

وينظر الإسلام-كما ذكرنا من قبل- إلى الفطرة البشرية على أنها تقبل التوجيه والتعديل، كما قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتقواها **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس:7-10] .

وقال تعالى في الحديث القدسي : " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ".

وقد أعطى الله الإنسان القدرة على تزكية نفسه وتهذيبها وتوجيهها نحو الخير والصلاح.

---

(١) انظر:د. عبد الله العمر، الأخلاق بين المدرستين السلفية والفلسفية ص (181).

وهناك جانب مهم في هذا الأساس الفطري، فيعتقد عالم من علماء الإسلام، كابن القيم مثلاً وغيره من العلماء بأن الفطرة الإنسانية فيها محبة وميل واستحسان نحو مكارم الأخلاق، والذي من شأنه أن يقوي الرغبة في الفضيلة والحرص على التخلق بها.

وثمة مسألة أخرى في غاية الأهمية، وهي أن الأخلاق منها ما هو فطري، بمعنى أن الإنسان يوجد متصفاً ببعض الأخلاق الفاضلة، وهذا يعني أن الفطرة وضعت الأساس للأخلاق، وأسهمت في البناء الأخلاقي ذاته في طوائف كثيرة من الناس.

كما أن الناس يتفاوتون في الاستعداد الفطري، ويجب على كل أحد من الناس أن يتوجه إلى الميدان الخيّر الذي يتناسب مع طاقاته وقدراته؛ ليتحقق به كماله، ولينتفع غيره به.

كما أنه يجب على المربين مراعاة ذلك فيمن تحت أيديهم، فينظروا إلى حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها، فيعلم أنه مخلوق أنه مخلوق له، فلا يحمله على غيره ما كان مأذوناً به شرعاً، فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح له، وفاته ما هو مهيأ له[1].

وفي هذا التوجيه من ابن القيم -رحمه الله تعالى- دعوة إلى مراعاة مواهب الله الفطرية، واستثمارها فيما يعود بأعظم النفع على المرء في ذاته وفي غيره.

إن اتجاه الإسلام ونظرته حول العلاقة القائمة بين الطبيعة البشرية والقيم الخلقية تُعد نظرة معتدلة متوازنة، تؤكد على وسطية هذا الدين، فإذا كان الإسلام ينظر إلى الطبيعة البشرية على أنها خيّرة في الأصل، لولا ما يكتنفها من فتن الدنيا والشياطين، فإنه يدعو إلى تربيتها وتمكينها، وعدم الاستسلام لهواها وشهواتها.

---

(١) ابن القيم، عدة الصابرين ص (117).

ويرى الإسلام أن لهذه الفطرة قوانين وسنن، يجب أن يؤخذ بها في الاعتبار عند و ضع النظام الأخلاقي، وبأن إهمال الفطرة الإنسانية عند وضع النظام الأخلاقي يؤدي دائماً إلى نظام أخلاقي لا واقعي.

وتظهر مراعاة الشريعة الإسلامية للفطرة الإنسانية في وضع نظامها الأخلاقي في أمرين :

- أن الأخلاق الإسلامية لا يتخرج عن بشرية الإنسان، ولا تفوق قدراته وطاقاته.
- وأن الإنسان مطالب من هذه الأخلاق فيما هو داخل تحت قدراته وطاقاته.

3- الأساس العلمي

القيم الإسلامية تقوم على أساس علمي، يتفق مع سنن الكونية، ويحقق معها الوحدة والاتساق.

فالقيم الإنسانية لا تقوم على فراغ وإنما على أساس رؤية شمولية ودقيقة للكون، وبقدر ما تكون الرؤية كاملة في بنائها، منبثقة من العلم الشامل بحقيقة الإنسان والكون والحياة؛ بقدر ما يكون نسق القيم القائم من خلالها مستجيباً لحاجات الإنسان ولحبه الأصيل لقيم الحق والفضيلة الأخلاقية.

والمنظومة القيمية الإسلامية تمتاز عن غيرها من المنظومات بأنها قامت على أساس علمي إلهي/ سماوي ، فواضع هذه المنظومة هو الله عز وجل، خالق الكون والحياة والإنسان، والله سبحانه وتعالى هو واضع نظام وسنن الكون، وما الأخلاق إلا جزء من هذا النظام المحكم؛ لذا تبرأ المنظومة القيمية الإسلامية من التناقض والتفاوت والاصطدام مع السنن الكونية؛ لأن واضعها قد أحاط بالكون، وسننه وقوانينه، على اختلاف البقاع وتباين الناس، فهي

منظومة صالحة لكل زمان ومكان.

كما أن القيم الإسلامية راعت جانب الواقعية والسنن الكونية؛ فلذلك لا تجدها تصطدم مع السنن الكونية، وذلك لصلاحيتها ولرعايتها جوانب الحياة المختلفة، واعتمادها على الأساس العلمي والواقعي، فهي ترتبط بالحياة الكريمة، فتجد أن الشرع قد حرم قتل النفس بغير الحق، وحرم التحاسد والتباغض والتدابر؛ لأن هذه الخصال تقوض الحياة الكريمة وتزعزعها.

وفي المقابل أمر الإسلام باحترام النفس البشرية وتكريمها، وحرم التعرض لأعراض الناس ودماءهم وأموالهم، وحث على بقاء النسل البشري في الأمة، ونهى عن الرهبانية، قال تعالى ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[الحديد:27].

ونهى النبي عن التبتل، وحث أمته على التكاثر، كما قال : " تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم".

ومن جهة أخرى فأن القيم الإسلامية مرتبطة بطبيعة النفس البشرية، وتعني هذه وجوب مراعاة الفروق الفردية والعقلية والنفسية، كما أنه دعا إلى مخاطبة الناس على قدر عقولهم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: " وما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة".

4-الأساس الإلزامي (الإلزام الخلقي)

- **مدخل :**

إن من المقومات الأساسية لكل نظام أخلاقي وجود سلطة تقوم على تطبيق هذا النظام، وتضمن لمبادئه الفاعلية والقوة المؤثرة في المجتمع، فتُلزم كل فرد فيه بعمل الخير والاستجابة له، واجتناب الشر والبعد عنه، وتظهر قوة هذه السلطة في الإلزام الخلقي[١]

الإلزام هو العنصر الأساس الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي، ويؤدي فقده إلى ضعف هذا النظام الأخلاقي، فبدون الإلزام لن تكون هناك مسؤولية، ولا توجد عندئذ عدالة، وحينئذ تتفشى الفوضى ويفسد النظام وتعم الهمجية.

معنى الإلزام الخلقي :

-**الإلزام لغة** : عند الجرجاني معنى لازم " ما يُمتنع انفكاكه عن الشيء، وقال أيضاً : اللازم في الاستعمال بمعنى الواجب[٢].

- **الإلزام اصطلاحاً** : ورد في المعجم الفلسفي بأنه " ما ينبغي عمله دون قصر أو إرغام ، فيأخذ الإنسان نفسه بما يمليه القانون الأخلاقي"[٣].

وعرفه المفكر المغربي طه عبد الرحمن بأنه " عبارة عن جملة الأوامر والنواهي التي تفرض من خارج على إرادة الإنسان"[٤].

ومن خلال ما سبق من تعريفات يتبين لنا أهمية فكرة الإلزام الخلقي، وأنها تدخل في عمق القضايا الأخلاقية التي اهتم بها علماء الأخلاق، ونجد فيها فتجدها في قواعد الأخلاق والأوامر والنواهي، ونجد فيها تلازماً مع مسألة

---

(١) انظر :د.مفرح القوسي، دراسات في النظام الخلقي ص (71).

(٢) التعريفات للجرجاني ص (190-191).

(٣) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية ص (20).

(٤) سؤال الأخلاق ص (156).

الإرادة في الفعل الخلقي والمسؤولية والجزاء والحرية في الاختيار، فهي في عمق مسائل الأخلاق ولا تنفك عنها.

خلاصة القول: إن معنى الإلزام الخلقي هو ذلك الصوت الذي يجده الإنسان في داخله، يوجهه بأن يفعل وفق إرادة حرة محملاً إياه مسؤوليته الكاملة عن فعله، وما ينتج من جزاء، إن خيراً فخير وﷺإن شراً فشر، فكل إنسان بصير على نفسه يضعها حيث يريد ووفق ما يريد[1].

والإلزام الأخلاقي على أنواع عدة، فهناك إلزام ديني، وهناك إلزام اجتماعي يقتضيه عرف المجتمع وتقاليده المعتبرة، وهناك إلزام سياسي تفرضه قوانين البلاد، وهناك إلزام خاصة تبتكره أعراف كل مهنة، كمهنة العلم والتعليم، ومهنة الطب، ومهنة القضاء.

وهذه الإلزامات المختلفة لا تتعارض فيما بينها، بل قد تجتمع و تتعاضد وتلتقي عند غايةٍ واحدة، وهي التوصل إلى الكمال الخلقي في صوره المختلفة[2].

ومن المتفق عليه بين علماء الأخلاق أن الإلزام الخلقي يُعد من أهم الأسس التي يقوم عليها صرح بناء الأخلاق، ولكنهم يختلفون في تحديد مصادر هذا الإلزام :

و كما علمنا -فيما سبق- بأن مصادر الإلزام الخلقي في الإسلام متعددة، ولكنها كلها ترجع إلى مصدر واحد هو الله سبحانه وتعالى؛ لأن الإلزام تشريع يتضمن أمراً بالفضيلة، وتحديداً لها، ونهياً عن الرذيلة، ووضع جزاءات وعقوبات عليها، فمصدرها حينئذٍ يجب أن يكون هو الوحي، لذلك فإن شرع الله عز وجل هو مصدر الإلزام الأول والأساس للقيم الأخلاقية.

---

(١) انظر : عبد الرحمن الجهني، الأخلاق بين الثبات والتغير ص(129).

(٢) انظر:د.مفرح القوسي، دراسات في النظام الخلقي ص(71).

وقد هيأ الله للإنسان في أساسه الخلقي والفطري للالتزام بالأخلاق بما وهبه الله من عقل، وحاسة خلقية- الضمير، وحرصٍ على الانتماء للمجتمع.
فالشرع المتمثل في القرآن الكريم أو السنة النبوية أو الإجماع كلها مصادر أصلية .

وصور ووسائل الإلزام الخلقي في القرآن الكريم كثيرة، منها على سبيل المثال:

- الإلزام من خلال تعزيز الجانب الاعتقادي.
- الإلزام بالترغيب والترهيب.
- الإلزام عن طريق العبادات.

فالصلاة سبيل للالتزام بحسن الخلق عامة، وتنهى عن الفحشاء والمنكر في القول والفعل.

- الإلزام من خلال الاقتداء بالمثل الأعلى (القدوة الحسنة).
- الإلزام بالأمر والنهي.

وكذا السنة تنهج النهج ذاته في الطرق والوسائل إلا أنها تفصل ما أجمله القرآن ، وتشرح مواقف القدوة في حياته الأخلاقية التي أخذها عن القرآن الكريم.

وكما جعل المنهج الإسلامي في القيم الأخلاقية مصادر أصلية، فتح المجال بضوابط دقيقة أمام المصادر الفرعية، وهي مصادر تعتمد في تكوين الإلزام الخلقي على المصدر الأول، وقد جاءت هذه المصادر الفرعية متنوعة، وهي:

- العقل .
- سلطة المجتمع.
- الضمير (الوجدان).
- العقوبة.
- سلطة الحاكم.
-

فالعقل مثلاً : كيف نراه مصدراً فرعياً في الإلزام الخلقي ؟
بمعنى أن هذا العقل الذي منّ الله به على الإنسان، وميّزه به على سائر المخلوقات يكون من أقوى البواعث التي تدفع المرء إلى الالتزام بالخير واجتناب الشر؛ذلك أن الإنسان إذا رأى بعقله السليم خيراً من سلوكٍ ما التزم به، وإذا رأى شراً في سلوك آخر تركه، وإذا أدرك-عادة- أن عاقبة فعله سارة فعله، وإذا أدرك أنها ستكون أليمة اجتنبه.
والعاقل يتحلى بالأخلاق الفاضلة لإدراكه بأن الله أمر بها، ولأنها وسيلة الخير في الدنيا والآخرة، والتخلي عنها وسيلة الشر والعذاب في الدنيا والآخرة، ولذا سيقول أهل النار-أعاذنا الله منها- يوم القيامة : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[المُلك:10].

وكذا سلطة المجتمع فإن من الناس من يكون وازعهم الإيماني ضعيفاً، فلا يخافون من الله كخوفهم من الناس، ولا يجدي معهم سلطان عقل ولا ضمير، ولو تركوا وشأنهم لعمّ الفساد واستشرى في المجتمع، فكان لا بد من سلطة ظاهرة تلزمهم بعمل الخير وتزجرهم عن الشر، وهذه السلطة تتمثل في سلطة المجتمع أو الجماعة التي أوكل الله إليها واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما في قوله تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾[آل عمران:104].
وقد اعتبر الإسلام المجتمع مسئولاً عن انحراف الأفراد؛لأن فساد البعض قد يؤدي إلى فساد المجتمع كله يوماً ما، وفي الحديث الصحيح " أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم إذا كثر الخبث".

ومن مصادر الإلزام الضمير الخلقي (الوجدان) ؛ لأن الإنسان فيه حاسة أخلاقية، يميّز بها بين ما هو حسن أو قبيح من السلوك، ومن ثمّ تطمئن النفس إلى السلوك الجميل وتنفر من السلوك القبيح، ومن ثمّ يدفعه إلى الالتزام بالأول والابتعاد عن الثاني، ومصداق ذلك قوله : " البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وخشيت أن يطلع عليه الناس ".

ومن طبيعة هذه الحاسة الأخلاقية أنها تدفع صاحبها إلى الالتزام بعمل الخير عادة، وتزجره عن عمل الشر، ولذا سمّاها القرآن الكريم بالنفس اللوامة.

ولكن لا يتأتى لهذه الحاسة (الضمير) أن تقوم بهذه المهمة إلا إذا نشأ صاحبها على الهدى والإيمان، وتربّى في مدرسة القرآن، وأيقن باليوم الآخر، واستشعر رقابة الله عز وجل.

وأيضاً لا ننسى مصدراً من المصادر الفرعية المهمة، وهو سلطة الحاكم :

فلما كان في الناس طائفة لا يكفي وعد الآخرة ووعيدها في حمله على فعل الخير وترك القبيح، ولا ينفع معها وازع إيمان أو عقل، ولا يجدي معها نداء الضمير، وذهب حياؤها من الله ومن عباده، أوجد لها الإسلام وازعاً آخر هو يتناسب مع طباعها ويزجرها عن غيها، وهو وازع السلطان الحاكم، الذي من المهام المنوطة به شرعاً إقامة حدود الله وتنفيذ العقوبات الشرعية في مرتكبي موجباتها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى -في بيانه لفوائد العقوبات السلطانية المشروعة: " قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) ، فإن من يكون من المنافقين والفجار فإنه ينزجر بما يشاهده من العقوبات، وينضبط عن انتهاك الحرمات"[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (28/65).

ومن هنا يتضح لنا أن الشرع لا يكتفي بعامل إلزام واحد فحسب، بل نوّع بين الإلزامات، وهذا فيه مراعاة لاختلاف الطبائع البشرية، فمن الناس من لا يلزمه إلا الإلزام بالأوامر الشرعية، ومنهم من لا يلتزم إلا بإلزام المجتمع، ومنهم من لا يردعه عن فعل القبيح إلا العقوبة، وهكذا.

والإلزام الخلقي الإسلامي له مزايا كثيرة، منها:

- أن المسلم يلتزم بهذا النظام الخلقي عن رضا ومحبة واقتناع واحترام، وحرص على بلوغه درجة الكمال والمثالية، وإن وقع في مخالفة لهذه القيم الخلقية؛ فإنه يتقبل ما يقع عليه من عقوبات وجزاءات.
- كما تميّز الإلزام الخلقي في الإسلام بخصائص مهمة، لا نجدها في أي أنظمة قيمية أخرى، وذلك في مراعاته الطبيعة البشرية عند الإلزام، ويسر تطبيقه، وتدرجه في تحديد الواجبات.

5- أساس المسؤولية الأخلاقية

وهذا الأساس يأتي بعد أساس الإلزام الخلقي؛ لأنه يترتب على الأساس الإلزامي -بالضرورة- أساسان خلقيان ، الأول : أن هناك مسؤولية أخلاقية، والثاني: أن هناك جزاء يترتب على هذه المسؤولية.

والمسؤولية الأخلاقية تعني :" تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله في الدرجة الأولى، ثم أمام ضميره في الدرجة الثانية، ثم أمام المجتمع في الدرجة الثالثة"[1].

وتحمّل المسؤولية الأخلاقية أمر ضروري للحياة البشرية- الفردية والاجتماعية والأخلاقية- على حد سواء، فهو من أكبر الزواجر عن فعل الشر والسعي بالفساد في الأرض، فإذا علم الإنسان أنه مسؤول عن أعماله بين يدي الله تعالى.

وقد خلق الله الإنسان، وهيأه في كل أحواله؛ كي يكون مؤهلاً لتحمل المسؤولية؛ فأرسل له الرسل، وأنزل عليه الكتب السماوية، ووهبه نعمة العقل، وحرية الإرادة ، فيرجع إلى الدين ليتعلم منه ما يتخلق به من الصفات، وما يجتنب ، ويميّز بالعقل بين الخير والشر، والحسن من القبيح.

والمسؤولية الأخلاقية عموماً تنقسم إلى قسمين :

1- المسؤولية الفردية ، ولها مجالان :

- المجال الداخلي : وهو مسؤولية الإرادة والقصد والنية، وهو الهم أو العزم على العمل ، والتفصيل فيه بين القدرة على الفعل أو عدم القدرة، وتشمل المسؤولية هنا في المجال الداخلي على أعماله القلبية ، مثل الظلم والحسد أو بغض أحدٍ من المسلمين دون ذنب.

---

(١) انظر : د. مقداد يالجن ، التربية الأخلاقية الإسلامية ص(318).

- المجال الخارجي : وهو مسؤولية الإنسان عن الفعل أو السلوك المادي المحسوس الظاهر ، سواء أكان كلاماً أم فعلاً، ويشترط لها أن تكون عن قصد واختيار، ويخرج عن هذه المسؤولية الإكراه على الفعل أو الاضطرار، وكذلك سلوك النائم والمجنون والصبي، وكذلك السلوك الناتج عن الخطأ أو النسيان.

2- **المسؤولية الاجتماعية** : وهي مسؤولية الإنسان المسلم عما يحدث في مجتمعه، أو هي مسؤولية الإنسان عن سلوك غيره، مسؤولية الجماعة عن سلوك الأفراد؛ وذلك أن الإنسان مدني بطبعه ، لا يستطيع العيش منعزلاً عن محيطه ومجتمعه؛ ولذا أوجب الإسلام فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وللمسؤولية الأخلاقية شروط هي :

1- **أهلية التصرف** : وهي القدرة على التمييز بين الخير والشر، تمييزاً واضحاً، ولهذا جعل الشرع العقل والبلوغ أساساً للتكليف الشرعي؛ لأن العقل معيار التمييز بين الخير والشر والشعور بالواجب، ومناط التكليف والمساءلة وتحمل النتائج والجزاء، فالطفل والمجنون والنائم والمغمى عليه ومن في حكمهم ليسوا أهلاً لتحمل المسؤولية؛ لسقوط التكليف عنهم لفقدانهم العقل أو قوة التمييز بين الخير والشر، ومن ثمّ الشعور بالواجب والمسؤولية[1].

2- **العلم** : وهو ثمرة العقل، الذي تميّز به بين الصواب والخطأ في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقاد، وبين الحسن والقبيح في الأفعال.

---

(١) انظر : د. مانع المانع، القيم بين الإسلام والغرب ص (105).

3- الإرادة : والإرادة والنية والقصد بمعنى واحد، وهي محور المسؤولية الأخلاقية، فمتى وجدت الإرادة وجدت المسؤولية، فإذا أكره إنسان على عمل، خيراً كان أو شراً؛ تسقط عنه المسؤولية الأخلاقية عن الفعل الصادر عنه، فلا يستحق ثواباً أو عقاباً ، قال تعالى ﴿مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم﴾[النحل:106].

4- الاستطاعة : فكما أنه لا مسؤولية بدون حرية اختيار، فكذلك لا مسؤولية بدون الاستطاعة لتنفيذ المختار، ودليلها قوله تعالى ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[البقرة:286]، فبالاستطاعة على تنفيذ المختار؛ أصبح الإنسان أهلاً لتحمل المسؤولية، وتميز بذلك عن سائر المخلوقات ، فهي لا تستطيع تنفيذ المختار؛ فقد قضي عليها بسلوك معيّن.

6- أساس الجزاء الأخلاقي.

والجزاء لغة :

يدور استعماله في اللغة على معانٍ عدة منها :

1- الكفاية : تقول : اجتزأت بالشيء اجتزاءً إذا اكتفيت به، وتقول : فلان ماله جزاء أي ماله كفاية[١].

2- المكافأة على الشيء: يقال : جزاه به ، وجازاه مجازاةً ، ويُستعمل هنا في الثواب والعقاب[٢].

3-القضاء يقال : أجزت عنك شاة ، أي قضت[٣].

وكل هذه المعاني تدور حول مقابلة العمل بالثواب أو العقاب.

والجزاء اصطلاحاً :

وقد عرفه علماء الأخلاق بعدة تعريفات منها :

1- " ما يترتب على عمل الإنسان المسؤول من مثوبةٍ في الخير أو عقوبةٍ في الشر"[٤].

2- " ما يجب أن يناله الإنسان، بحكم عمله الحر، الناتج عن إرادة واختيار، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قد يكون هذا الجزاء مادياً أو معنوياً مباشراً أو غير مباشر، عاجلاً أم آجلاً"[٥].

---

(١) انظر : ابن منظور ، لسان العرب (1/46-47).

(٢) انظر : الفيروز أبادي، القاموس المحيط(4/314).

(٣) انظر: ابن منظور، لسان العرب (1/47).

(٤) د.سمير الجنزوري، الأسس العامة لقانون العقوبات مقارناً بأحكام الشريعة ص (103).

(٥) د.محمد عقلة، النظام الأخلاقي في الإسلام ص (117).

أهمية الجزاء الأخلاقي ، كأساس من أسس الأخلاق :

تظهرُ هذه الأهمية في الارتباط العضوي بينه وبين الأساس الإلزامي ، وأساس المسؤولية الأخلاقية، فالإلزام يستدعي وجود شخصية قادرة على القيام بالفعل، كما يستدعي وجود محاسبة ومساءلة له ، ومن ثم وجود جزاء على الفعل، حسناً كان أو قبيحاً، وغياب هذا الجزاء يؤدي-بلا شك- إلى ضعف الالتزام بالأخلاق القويمة، والمساواة بين من يلتزم بالقيم الأخلاقية، فيكون أداة لبناء مجتمعه أخلاقياً، مع من يخالف هذه القيم؛ ليكون معول هدم لمجتمع الفضيلة !

وفي الجزاء الأخلاقي في الإسلام تظهر خصائص تميّز البناء القيمي الأخلاقي الإسلامي عن الأخلاق الوضعية، فينما يربط المذهب النفعي الأخلاق بالمنافع المادية والدنيوية الناتجة عنها؛ فهي عندهم وسيلة فحسب!

أما الإسلام فيقف موقف الوسط المعتدل، فتظهر مراعاته للطبيعة الإنسانية، فللإنسان جانبان: جانب مادي وجانب معنوي، وقد راعى الإسلام الجانبين معاً، عندما قرر للسلوك الأخلاقي الجزاء المادي والمعنوي معاً.

أنواع الجزاءات في القيم الإسلامية أربعة هي :

1- الجزاء الإلهي (الديني) :

وهو أقوى الجزاءات كلها وأكثرها أثراً في النفس البشرية، وهو جزاء دائم ممتد، يشمل الدنيا والآخرة، وهذا الجزاء هو أساس الجزاءات الأخرى؛ لذلك كان له الأثر البالغ في النفس البشرية.

وينقسم إلى قسمين :

أ- الجزاء الإلهي الدنيوي، فيكافئ الله عز وجل المحسن الملتزم بالأخلاق الحسنة في الدنيا بأنواع المكافآت المادية والمعنوية، كما يعاقب ذا الأخلاق السيئة بأنواع مختلفة من العقوبات الدنيوية.

ودليل ذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف:96].

ب- الجزاء الإلهي الأخروي ، وهو ما يقع في الآخرة، فيكافئ الله المؤمن صاحب الأخلاق الطيبة بالجنة، ويثقل موازينه يوم القيامة، ويكون أقرب الناس مجلساً من رسول الله ، أما ذو الخلق السيئ فينال أيضاً من العذاب بحسب ما أتى من معصية وخطيئة!

2- الجزاء الوجداني :

ويُقصد به تلك الحركة الشعورية التي نحسُّ بها في أعماق أرواحنا، بالفرح أو الندم أو التأنيب، مباشرة بعد كل فعل، نعتقدُ بأنه حسن أو قبيح، ونحن ندرك بأن الجزاء الوجداني أكثر تأثيراً من الجزاء المادي.

ويصف تلك الحالة قوله تعالى﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب﴾[الرعد:28].

ومثله قوله تعالى ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[النور: 30]، أزكى لهم أي أطهر لقلوبهم.

ومثل هذه الحالة أجلى ما تكون في حادثة الصحابة الذين تخلفوا عن رسول الله ،وقد ضاقت عليهم الأرض ، بل ضاقت عليهم أنفسهم !
يقول تعالى -في وصف هذا الجزاء الوجداني- ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[التوبة:118](١).

3- الجزاء الطبيعي :

وهذا الجزاء مبني على أساس ارتباط القوانين الأخلاقية بسنن الله الكونية، كما سبق بيانه في الأساس العلمي، ويمكن أن يعدّ هذا الجزاء جزاء إلهي أيضاً، من حيث أن الله عز وجل عندما وضع القوانين الأخلاقية بناها على أساس سننه الكونية، كما جاء في الحديث " ولم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا".

4- الجزاء الاجتماعي :

وهو ما يقرره المجتمع من عقاب للمنحرف، ومكافأة للمستقيم الصالح، والجزاء الاجتماعي أشد وطأة على النفوس، وهو يكشف الفاسقين والفاجرين، ويردع ضعاف النفوس عن سلوك طريق السوء.
وهو أيضاً ما يناله المتحلي بالأخلاق الكريمة من تقدير المجتمع وتكريمه ومحبته، وما يناله سيء الخلق من عدم مبالاة مجتمعه، والابتعاد عنه، وتحذير الناس من مجالسته(٢).

---

(١) انظر : د.مانع المانع ، القيم بين الإسلام والغرب ص (112-113).
(٢) انظر :د. أحمد الحليبي، المسؤولية الأخلاقية ص (439).

و يضيف بعض علماء الأخلاق الجزاء المادي ، وهي العقوبات ، أو الجزاء الأدبي من مثل عدم قبول شهادته ..الخ ، وكل هذا يدخل في الجزاءات الأربعة !

وفي ضوء ما سبق يمكن القول :

بأن هذه القيم الإسلامية تقوم على عدة أسس ، أبرزها الأساس الاعتقادي والأساس العلمي والأساس الإلزامي والأساس الجزائي، وأساس المسؤولية الأخلاقية.

وقد راعت هذه الأسس تكون الإنسان من جانبين : مادي ، وآخر روحي، مع وجود فروق فردية بين الناس، مما يجعل لهذه الأسس أثراً قوياً في بناء وثبات وواقعية وفاعلية هذه المنظومة القيمية، وبناء شخصية مسلمة سوية، متمسكة بقيمها الإسلامية عن قناعة وإيمان ومحبة خالصة!

بسم الله الرحمن الرحيم

❖ المبحث الخامس : أهمية القيم الإسلامية .

للقيم الإسلامية أهمية كبرى، وضرورة لا يستغني عنها أي أحد من الناس في أي زمن من الأزمان، فمكارم الأخلاق-وهي من أنواع القيم- ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات الإنسانية، ومتى تخلت المجتمعات عن الأخلاق ، التي هي الوسيط بين الإنسان وأخيه ؛ تفكك المجتمع ، وتصارعوا وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم هذا إلى الانهيار ، ثم الدمار الشامل.

من الممكن أن تتخيل مجتمعاً من المجتمعات انعدمت فيه مكارم الأخلاق:

كيف يكون حاله ؟

كيف تكون -فيه- الثقة بالعلوم والمعارف والأخبار وضمان الحقوق لولا فضيلة الصدق؟

كيف يكون التعايش ممكناً بين الناس؟، كيف يعيشون في أمن واستقرار ؟

كيف يكون التعامل بينهم في العمل ضمن بيئة مشتركة لولا فضيلة الأمانة؟

كيف تكون أمة من الأمم قادرة على قيام حضارة مثلى لولا فضائل التآخي والتعاون والمحبة والإيثار بين أفراد هذه الأمة؟

كيف يكون الإنسان مؤهلاً لارتقاء مراتب الكمال الإنساني إذا تفشت الأنانية، وأضحت مسيطرة على المجتمع، صارفة له عن كل عطاء وتضحية وإيثار ؟

لقد دلت التجارب الإنسانية، وأحداث التاريخ، أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازماً لارتقائها في سلم الأخلاق الفاضلة، وأن انهيار هذه القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها، ومتناسب معه، فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب مطرد في الصعود والهبوط؛ وذلك لأن الأخلاق الفاضلة في أفراد الأمم والشعوب تمثل المعاقد الثابتة التي تعقد

عليها الروابط الاجتماعية، ومتى انعدمت هذه المعاقد أو تكسرت في الأفراد لم تجد الروابط الاجتماعية مكاناً تنعقد عليه، ومتى فقدت الروابط الاجتماعية صارت الملايين في الأمة المنهارة مزودة بقوة الأفراد فقط ، لا بقوة الجماعة، بل ربما كانت للقوى المبعثرة فيها بأساً عظيماً بين أفرادها ، مضافاً إلى قوة عدوها البعيد والقريب.

وكي تتضح لنا أهمية القيم يمكن تقسيم هذه الأهمية إلى مطلبين :

- **المطلب الأول : أهميتها للفرد .**

وتتبين هذه الأهمية في أمور مختلفة منها :

1- تشكيل الشخصية المسلمة، ومساعدتها في تحديد أهدافها بطريقة صحيحة وسليمة.
2- إصلاح الفرد من الناحية النفسية والخلقية.
3- منح الفرد فرصة للتعبير عن ذاته وإثبات وجوده.
4- منحه سلامة الاعتقاد الخاص به ، ومساعدته على فهم العالم الذي يعيش فيه.
5-توفير الشعور بالأمن النفسي للفرد ، وتحقيق سعادته في الحياة الدنيا.
6-ضبط شهوته، وجعله سيداً لنفسه لا عبداً لهواه وشهواته.
7- تجنيب الفرد سبل الشبهات ، التي قد تكون سبباً في ضلاله.

- المطلب الثاني : أهميتها للجماعة/ المجتمع.

1- ربط المجتمع بالعقيدة الصحيحة والقيم النبيلة.
2- مساعدة المجتمع على مواجهة التغيرات المختلفة.
3-توحيد الطاقات والتنسيق بينها وتوجيهها نحو الرقي بالمجتمع.
4- بناء حضارة إنسانية خيّرة ، ووقاية المجتمع من العنصرية والأنانية.
5- ترسيخ ثقافة المجتمع ، ووقايته من الثقافات الوافدة.
6- مساعدة المجتمع على التعامل مع المجتمعات المختلفة في العالم بما يتوافق مع ديننا الإسلامي الحنيف.